لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

صلاح الدين الأيوبي
وعصره

تأليف

محمد فريد أبو حديد



أرسطو المعلم الأول

سلسلة المعارف العامة

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م

فهرس الكتاب

الكتاب الثانى

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى

فهرس الصور والخرائط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة المؤلف

قد رأت لجنة التأليف والترجمة والنشر أن تبدأ بسلسلة من المؤلفات فى مختلف الموضوعات، وأسعدنى الحظ أن اشتركت فى تلك السلسلة بوضع كتاب فى تاريخ "صلاح الدين الأيوبى وعصـــره" .

وقد حاولت أن يكون قولى فى ذلك الرجل العظيم جامعا ما كان له من "أعمال وما امتاز به من الصفات، مراعيا أن أجمع الى دقة التاريخ بساطة الأسلوب، وألا أغلو فى التفصيل غلوا يذهب بملامح الصورة التى قصدت الى رسمها من صلاح الدين وعصره . ولم أقتصر فى النظر على وجهـــة واحدة بل جمعت بين وجهتى نظر مؤرّخى المسلمين ومؤرّخى الفرنج حتى لا يكون هناك ميل فى الحكم إلا بمقدار ما تستوجبه عقيدتى التاريخية الخاصة ،

فلست أعتقد أن واجب المؤرخ السرد والحكاية ، وإنما عليه واجب آخر هو المناقشة وإظهار ما يعن له من رأى .

وكان اختيارى للكتابة عن حياة صلاح الدين لأنه مؤسس دولة مصرية عظيمة يمكننا أن نعدها أولى الدول المصرية العظمى التى لا شبهة فى مصريتها . فان الدول التى سبقتها لم تكن دولا مصرية بحتة ، وذلك أن دولة الطولونيين والآخشيديين لم تكن دولة بالمعنى الصحيح ، بل كانت محاولات أولية ، ولم تكن الدولة الفاطمية بمصر دولة وطنية بالمعنى التام ، إذ جاء الفاطميون فاتحين بعد أن تأسست دولتهم فى شمال أفريقيا ، وحتى بعد أن أصبحت مصر مركزا لدولتهم كان المذهب الشيعى حائلا بينها و بين المصريين من أن يندمج بعضهم فى بعض كل الاندماج و يكونوا حكومة وطنيــة صحيحة ، فكانت دولة صلاح الدين بمصر أول الدول الوطنيــة العظمى التى جعلت لمصر مكانها العالى بين دول العالم فى القرون الوسطى .

على أن لصلاح الدين مكانة فوق هذه . وذلك أنه كان البطل العظيم الذى أحرز الشرق على يديه النصر على الغرب فى ذلك النضال الهائل الذى اهتز له جميع العالم وهو النضال الدينى المعروف بالحروب الصليبية . وقد كان صلاح الدين فوق كل هذا من أعظم الأفذاذ

الذين ذكرهم التاريخ وأن حياة العظماء أجدر أبواب التاريخ بالبحث لما فيها من مواعظ وعبر . ولما يتخللها من مواقف جليلة .

وانه ليسرنى أكبر السرور أن اختارت اللجنة كتابى ليكون من رسائلها الأولى، وانى مدين لها فى مراجعة الكتاب، وقد استفدت فائدة كبرى من ملاحظات لجنتها الفنية . وكذلك يجب على أن أشكر ابراهيم افندى جمعه الطالب بمدرسة المعلمين العليا لقيامه برسم الخرائط التى وضعتها لإيضاح الموضوع .

ولا يفوتنى أن أشكر حضرة الفاضل محمد أفندى نديم ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية على إظهار الكتاب بهذا النظام الجميل الذى يدل على ما حازه فنّ الطباعة على يديه من التقدّم الباهر .

والله أسأل أن يسدّد خطانا فى سبيل خدمة العلم والقيام بواجبنا فى هذا السبيل نحو الوطن م؟

محمد فريد أبو حديد

تاريخ صلاح الدين وعصره

الكتاب الأول

مباحث تمهيدية
لتاريخ صلاح الدين الأيوبي

١ — دعوة الاسلام ونضاله مع الأمم

قام دين الاسلام فى صحراء العرب ثم نما وزاد حتى شمل كل الجزيرة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وجعل ينشر جناحيه كى يظل بهما ما يليه من أمم الأرض من قبل المشرق والمغرب، فان دخلوا تحته راضين كانوا إخوانا وإن هم أبوا ذلك جاهدهم حتى يدخلهم فى حوزة العقيدة والايمان أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وكان الاسلام يرضى بتلك الخطة الأخيره عالما أنها الخطة العملية لإدخال الناس فى حظيرته على طول الزمن اذا هم قاوموا الصدمة الأولى، علما منه بأن دفع الجزية والخضوع سيدفعان بعد حين الى الدخول فى الدين عند ما تهدأ ثورة الإباء .

وقد وجد الاسلام من العرب عدّة واستعدادا، بجعل سيلهم يتدفق على ما جاوره من البلاد، فاجتاح فارس وهبط على ما يليه من بلاد الروم حتى أقام دولة فتية لم يشهد مثلها التاريخ إلا قليلا، فبلغت فى نحو تسعين سنة اتساعا لم تبلغه دولة الروم فى قرون طويلة. وكان من أسباب انتصار هذه الدولة الفتية تلك الحماسة الدينية العجيبة التى لم يذكر مثلها التاريخ لشعب آخر من الشعوب. حماسة قائمة على عقيدة كالصخرة لا يدخل اليها شك ولا يضعف من سورتها ظلم، بل كانت عقيدة حرّة ثابتة. فشهد العالم نوعا جديدا من أنواع الدولة يقوم على الجهاد فى سبيل العقيدة الدينية، فلا تقوى دولة من دول الأرض على الوقوف فى وجهها. وكان ذلك أوّل عهد جديد طلع على العالم المعروف.

وسارت دولة الاسلام بعد ذلك قدما فى سبيلها فهدأ تيار الفتح بعد حين وجعلت أمورها تستقر وأخذت تلتمس المدنية من وجوهها فنقلت ما نقلت عن دول سبقتها مثل فارس ومصر وأنشأت لنفسها فوق ذلك مدنية طريفة صبغتها بصبغتها. حتى اذا كانت أواخر القرن السابع بعد الميلاد (النصف الأخير من القرن الأوّل للهجرة) صارت دولة الاسلام (دولة بنى أمية) هى دولة

العالم الكبرى وكان الى جوارها فى أوروبا دولة الروم الشرقية من قبل آسيا الصغرى .

وكانت أوروبا فى هذا الوقت قد طرأ عليها تغير كبير من حوادث ذات بال وقعت بها منذ أواخر القرن الخامس للميلاد — قبل الهجرة بنحو قرن ونصف — وذلك أن دولة الروم العظيمة الغربية بلغت شيخوختها وضعفت وجعلت أمم من المتوحشين تغير عليها من شهوب الشرق المجاورة لبحر قزوين وما اليه، فما زالت تلك القبائل الهمجية تصدعها حتى تصدّعت وتفككت وسقطت وآلت رومة العظيمة عاصمة العالم الى يد الفاتحين من قبائل القوط ومن ذلك الوقت ضاع أمر دولة الروم الغربية وتقسمت أرضها بين المغيرين فأخذت قبائل الفرنج (الفرنك) بلاد غالة (فرنسا الحالية)، وهبط (الوندال) ثم قبائل القوط الغربيــة فى أسبانيا حيث ظل حكمهم أكثر من قرنين الى أن أتى العرب فقاموا على أنقاض دولتهم هناك. ثم استقرت دولة القوط الشرقية فى ايطاليا، وبذلك صارت مدنية الدولة الرومانية الى تلك الأيدى الخشنة فما لبثت أن ذهب رواؤها وأصبحت أثرا بعد عين .

على أن العالم الغربى قد كسب شيئا وإن فقد مدنية الرومان، وذلك أن الشعب الرومانى القــديم كان قد بلغ مرتبــة الشيخوخة

والضعف وكان لا بدّ له من الفناء فى نضال البقاء، فلما غلبت عليه تلك القبائل المتوحشة واختلطت به دخلت فى دين المسيح وأدخلت على شيخوخة الشعب الرومانى فتوّتها وخشونتها و بداوتها فدخل دم الشباب من هذه القبائل الى الشعب القديم وعادت اليه قوة حيوية كبرى و بقيت المدنية القديمة محلا للتقديس ولو أنها كانت غير مفهومة ولا مدركة ، وكان الدين المسيحى الذى اشترك فيه الشعبان القديم والحديث علاقة متينة زالت بواسطتها الموارق تدريجا حتى اذا ما أتى القرن الثامن بعد الميلاد (القرن الثانى للهجرة) كانت عوامل الاختلاط قد أتت بنتائجها وأصبح الشعب القديم غير ظاهر وحده بل صار الناس خليطا من الشعب القديم والشعوب الهمجية، وبدأت كل جهة تمتاز عن الأخرى لهجة وعادات وطبائع بحسب السنة الطبيعية لاختلاف البيئات ولهجات القبائل المختلفة، و بذلك وضع أساس أمم أورو با الجديدة .

عظمت بعد ذلك دولة العرب فى مدّة العباسيين حتى صارت أعظم دولة فى العالم مجدا ومدنية وقوة، ولكن انفصلت عنها أجزاء قامت منها دول فتية أخرى أكبرها دولة الأمو يين بالأندلس يحكمها أبناء عبد الرحمن الأموى الذى هرب من العباسيين الى الغرب وعبر البحر وكوّن دولة مستقلة فى شبه جزيرة الأندلس ينافس بها

أعداء أسرته العباسيين، وعلى هذا كان للعالم المسيحى فى القرن الثامن للميلاد جبهتان يتقابل فيهما بدول الاسلام :

الجبهة الأولى الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها فى القسطنطينية وهى تتاخم دولة العباسيين عند آسيا الصغرى .

والجبهة الأخرى حطام الدولة الرومانية الغربية التى استولى الهمج على أنحائها وكونوا فيها الدول الجديدة البدوية، وكانت الدولة الاسلامية القريبة من تلك الجبهة دولة الأندلس .

على أنه قد بدأت فى أوروبا فى القرن الثامن للميلاد حركة ترمى الى توحيد الدول المسيحية وإعادة إنشاء دولة واحدة عظيمة شبيهة بدولة الروم الغربية القديمة .

وكان قوام تلك الدولة الجديدة شعب الفرنج تقوده أسرة من نسل البطل الفرنجى الكبير شارل مارتل صاحب الانتصار على العرب فى وقعة "تور" سنة ٧٣٢ بعد الميلاد وهو الذى تعدّه أوروبا الغربية حاميا لها من سيل العرب الجارف الذى كان يهدّدها من الأندلس .

بلغت تلك الدولة شأوا كبيرا فى أيام الملك شارلمان أو شارل الكبير حفيد شارل مارتل، ويمكن أن تعتبر دولته إعادة لسيرة الدولة الرومانية القديمة مع فارق عظيم يجب ألا ينسى وهو أن تلك الدولة

الجديدة كانت فى الواقع دولة فرنجية أى أن قوامها كان من الفرنج سلالة الهمج الذين اشتركوا فى هدم الدولة الرومانية الغربيــة منذ ثلاثة قرون، فكانت دولة متسعة على رأسها حكومة واحدة ويحاول ملكها العظيم أن يجعلها شبيهة بالدولة الجليلة القديمــة فى نظامها وان كان لايستطيع أن يعيد ذلك النور الذى انطفأ على يد أجداده الغزاة الأوائل .

فبعد قرون ثلاثة من سقوط رومة إستقرّ العالم على حال جديدة وأصــبح فيه دول ثلاث أو أربع ألا وهى دولة المســلمين ودولة الفرنجة (الامبراطورية الغربية) والدولة الرومانية الشرقية .

نقول دول ثلاث أو أربع لأن دولة المسلمين فى ذلك الوقت كانت كما قدّمنا غير متحدة، فقد انفصلت بعض أطرافها فكانت دولا مستقلة أكبرها دولة الأندلس، ولهــذا كانت دولة المسلمين فى الواقع دولتين كبيرتين : دولة العباسيين المشارقة، ودولة المغاربة بنى أمية بالأندلس .

٢ — علاقة الاسلام بأمم أوروبا منذ القرن التاسع

استقرّت تلك الدول بعد ذلك الاضطراب الطويل الذى غير وجه العالم وصارت لها فيما بينها علاقات وروابط . وتبدّلت وجهة ما بينها من العلاقة الى ما يكون عادة بين المتجاورين من علاقات

معاملة ومنافسة ومنازعة، ولعل من أكبر مايسترعى النظر فى حروب المسلمين مع من جاورهم أن لفظ الجهاد كان لا يزال مستعملا . فلا نزال نسمع ذلك الاسم (الجهاد) يعبر به المؤرخ الاسلامى عن حروب العباسيين أمثال هرون الرشيد والمعتصم مع الدولة الرومانية الشرقية، وكذلك يتردد ذلك الاسم وهو الجهاد فى وصف حروب عبد الرحمن الأوسط مع جيرانه ملوك الفرنج وأمراء القوط بجبال الأندلس .

والحق أن ذلك اللفظ وهو الجهاد يجب أن يقصر على العصر الأول من غزوات المسلمين أيام كان القصد الأول من الحروب بث الدعوة الاسلامية فى أنحاء الأرض، فقد كان المسلمون إذذاك أصحاب مبدأ جديد وفكرة يريدون أن تسود العالم، فكان أول شىء فى نظرهم إبلاغ الناس ما عندهم من الدعوة والعمل على أخذهم بها ولو كلفهم ذلك مهجهم . فما كانوا يعبأون أيحاربون فى صحارى قاحلة أم فى وديان خصبة . ولا يبالون أنالهم بأس البرد أم حر القيظ فى سبيل ما يدعون اليه . وكان العدو بعد الانتصار يصير صاحبا، له ما لهم وعليه ما عليهم اذا هو قبل دعوتهم .

وما كان لهؤلاء المجاهدين الأولين أن يفرقوا بين جنس وجنس أو بين لون من الناس ولون . بل إنهم كانوا يغلبون العدو وهم يرون أنهم يؤدون له أكبر خدمة بابلاغه الدعوة وتمهيد السبيل

أمامه الى السعادة الأخروية . فكان شأنهم فى ذلك شأن كل أصحاب الدعوات والمبادئ ، ولكن لقد كان للجهاد عصره ثم انقضت الروح التى كانت تدفع اليه . ثم دخلت دولة الاسلام فى دور حياة مدنية وحلت فى بلاد ذات مجد قديم وسارت فى مواطئ أقدام الأمم الغابرة وأخذت بمدنياتها تدريجا وتكونت فيها حكومات منظمة سلكت فى معاملاتها مع جيرانها سلوك من تقدّمها من الدول، فحلت العلاقات السياسية محل الحماسة الى الدعوة الاسلامية حتى لنجد هرون الرشيد خليفة المسلمين يراسل امبراطور دولة الفرنج ويهاديه ولعل ذلك كان التماسا لصداقته نكاية للدولة المتاخمة لدولته نعنى دولة الروم الشرقية . على حين نجد عبدالرحمن الأوسط بالأندلس يراسل امبراطور الدولة الرومانية الشرقية ويهاديه التماسا لصداقته ونكاية للدولة المتاخمة له وهى دولة الفرنجة . فهل اذا حارب الرشيد دولة الروم الشرقية أمكن أن نصف تلك الحرب بأنها جهاد من أجل الفكرة الدينية ؟ وهل اذا حارب عبد الرحمن الأوسط دولة الفرنجة أمكن أن نعدّ ذلك جهادا بالمعنى الصحيح ونعنى به نشر دعوة الاسلام ؟ .

الحق أن الدول الاسلامية عند ما تكونت واستقرت أصبحت فى تعاملها مع من جاورها من الدول دولة دنيوية لها علاقات ودّية

فى جانب وعدائيـة فى جانب آخر بحسـب ما تقضى به مصلحتها وأصبحت فكرة الجهاد المجرّد غير حقيقية ، وانما أبقى اسم الجهاد مستعملا فى وصف الحروب مع العالم المسيحى سيرا على التقاليد الأولى وإعلاء من شأن الدولة بوضعها فى مكان السائر على سنن أهل الدعوة الأوائل الأجلاء، وتبريرا للحرب واستنهاضا لهمة الناس كى يبذلوا ما يرغب منهـم بذله راضين شاكرين . أما من جهة المسيحيين فانهـم كانوا فى حروبهم مع المسلمين الى القرن العاشر لا يحاربون لأجل نشر مبدأ دينى بل كانوا أصحاب بلاد يحاولون الدفاع عنها، وعلى ذلك لا يمكن أن تسمى حروبهم الى ذلك الوقت حروبا دينية اذ لم يكن لهم قصـد من بث دعوة دينية . حقا لقد كان الفرنجة المسيحيون أحيانا يقومون بحروب دينية . ومثل تلك الحروب ما شنّه شارل الكبير على ما جاور بلاده من سكسونيا الوثنية فى أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع للميلاد . ولكن تلك الحروب كانت محلية قليلة الشأن . ويمكن أن نقول بوجه الاجمال إن العالم المسيحى قبل القرن الحادى عشر لم يعرف الحرب الدينية بالمعنى الصحيح، أو بقول آخر لم يقم بحروب صليبية لبثّ دعوة المسيح فى أنحاء الأرض بثّا منظما فى دائرة واسعة كما فعل العالم الاسلامى أيام الجهاد الأول، فاذا نحن جئنا بعد ذلك الى القرن

الحادى عشر ورأينا اسم الجهاد يتردّد فى أنحاء العالم الاسلامى من نهر دجلة فى العراق الى نهر دورو فى الأندلس والى جانب ذلك يتردّد اسم الصليب على طول خط الحـدود الفاصلة بين العالمين : العالم الاســلامى والعالم المسيحى ، اذا رأينا هـذا عرفنا أن هناك شيئا جديدا وأن عاصـفة قد ثارت فأعادت اسم الجهـاد يهتف به من جانب المسلمين وأثارت اسم الحرب الصليبية يهتف به من جانب المسيحيين ، فما الذى أثار تلك العاصفة ؟ .

٣ — صريخ القسطنطينية

فى أواخر القرن الحـادى عشر وجه امبراطور الدولة الرومانية الشرقية دعوة الى البابا ليدعو أمم الغرب من فرنجة وألمـان وانجليز الى نصرة الصليب وتخليص بيت المقـدس من أعدائه المسـلمين فوجه البابا دعوته الى أوروبا فسارت فى الشعوب كما تسير النيران فى الهشيم ، وقامت أوروبا كرجل واحد الى الغرض الذى دعى اليه البابا ، فكانت حروب دموية بين الشرق والغرب استمرّت ثائرة مدّة قرن ثم خبا لهيبها تدريجا بعد ذلك ولو لم تنطفئ ناره جملة . فما الذى جعل امبراطور القسطنطينية يرسل تلك الدعوة ؟ وما الذى جعل البابا يقبلها رغم الحفيظة التى كانت فى قلبه على الكنيسة الشرقية ؟

وما الذى جعل أوروبا تجيب دعوة البابا بهذه الحماسة العجيبة التى بدت منها ؟ .

لقد كان بين القسطنطينية وروما منذ قرون منافسة ومشاحنة (١)

---

(١) عندما دب الضعف فى الدولة الرومانيــة شـعر أباطرتها منذ القرن الثالث للميلاد بضرورة تقسيم الدولة الى أقسام لغرض حمايتها من غارات المغـيرين فتقسمت الدولة فى أيام دقلديانوس الى أقسام أربعة ثم عادت بعده الى وحدتها ، فلما كانت أيام الامبراطور قسطنطين شعر بالحاجة الى تحصين الشرق ببناء العاصمة الكبرى التى تشرف على البوسفور فبنى مدينته القسطنطينية فى مكان قرية قديمــة اسمها "بوزنطه" وجعل اقامته فيهـا ، وكان قسطنطين أول امبراطور مسيحى للدولة الرومانيــة ولعل مقامه فى القسطنطينية كان مقصودا به البعد عن رومة العاصمة القديمة ومركز الوثنية وهناك فى القسطنطينية نشأ مركز جديد قوامه الشعب اليونانى والمدنية اليونانية واللغة اليونانية . وعلى مر الأيام صارت العاصمة الجديدة تنافس العاصمة القديمة فى كل شىء ، وقد زادت تلك المنافسة عندما تقسمت الدولة الرومانية نهائيا الى قسمين : الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، والدولة الرومانية الغربيــة وعاصمتها رومه وزاد التنافس شدة عندما سقطت رومه فى يد البرابرة فى القرن الخامس للميلاد ، ولم يبق فيها ما يربط الشرق بالغرب ، وعند هذا بدأ البابا يظهر بنفوذه الدينى اذ أصـبح هو الممثل الوحيد للمدنية القديمة والشعب الرومانى وأصبح معدودا خليفة القديس بطرس الرومانى ولم يكن خاضعا لسلطة امبراطور الشرق فبدأت الكنيسة الرومانيــة تقف موقف التحدى والكبرياء أمام كنيسة قسطنطينية وسلطة الامبراطور الشرقى ، ثم انقلب الأمر الى خلاف وشقاق وما زال الخلاف ينمو حتى كانت بين البابا والامبراطور فى القــرون السادس والسابع والثامن مواقف عاصفة على أثر خلاف فى الجدل المذهبى فكان يخيل الى من يرى ذلك أن الدين المسيحى قد شطر شطرين لا يمكن التئامهما .

وها نحن نجد القسطنطينية تتناسى تلك الاحن القديمة وها نحن نرى أوروبا تدوس تلك المنافسة تحت أقدامها وسنابك خيولها ويتصالح المسيحيون من الشرق والغرب ويتحالفون على الاسلام .

لقد كان الخلاف الذى بين شقى العالم المسيحى خلافا يكاد يمس أساس العقيدة، فكان المسيحيون فى الشرق يعتبرون المذهب الغربى خرافة على حين كان خليفة القدّيس بطرس فى روما (البابا) ينظر الى الشرق أنه منشق عنه خارج عليه، ولكم كان بين الاثنين مواقف عاصفة وتراشق بالألقاب، بل لقد كان بينهما تنافس حربى ومثل ذلك أن بوهمند (بيمند) بن روبير جيكار الملك النرماندى على جنوب ايطاليا وصقلية عبر البحر الأدرياتى وجعل يغزو أرض الدولة الشرقية بتحريض سيده البابا صاحب ولائه .

ولكن تلك الفروق وتلك المنازعات لم تقف أمام التيار الجارف الذى اجتاح أوروبا فنسيت كل العداوات القديمة وسوّيت الحزون وتعانق أبناء المذهبين حتى إن بوهمند ذلك الأمير الذى غزا أرض الدولة الرومانية الشرقيـة صار أحد القوّاد الكبار الذين ذهبوا الى القسطنطينية لنصرة كلمة المسيح .

أما هذا الانقلاب الذى طرأ على سياسة الدولة الشرقية وجعلها تطلب مساعدة البابا فيمكن كشفه من تتبع علاقة تلك الدولة بالدول

الاسلامية إجمالا منذ القرن الثامن للميلاد. فقد كانت الدولة العباسية فى القرن الثامن للميلاد فى عنفوانها فسلبت جارتها الرومانية كثيرا من أملاكها ، فلما انشغل العباسيون فى مشاغلهم الداخلية أمكن دولة الروم أن تبقى ثابتة الحدود عند شرق آسيا الصغرى، ثم مضت قوة الدولة العباسية وذهب أمثال المهدى والرشيد والمأمون وتلا ذلك استبداد جنود الأتراك بالخلافة العباسية فأخذت الدولة تضعف فى نضالها الخارجى وزادها ضعفا أن انفصل عنها كثير من البلاد التى بدأت تستقل كالأغالبة والأدارسة فى أفريقية وأخيرا جاءت الضربة القاسية وهى استبداد بنى بويه الشيعيين بأمر الخلافة ، فأصبحوا وزراء فى الاسم ولكنهم كانوا المسيطرين على الأمر كله وكان الخليفة أحيانا يحاول أن يثبت لنفسه أمرا فكان يحدث من وراء ذلك تشاحن وتنازع بينه وبين الوزير. فاضطربت أمور الدولة الاسلامية وتفرقت كلمتها وانفجر جثمانها فصار أجزاء متناثرة من أمارات فى فارس وخراسان وأخرى فى الشام وسواها فى مصر . وهكذا وجدت الدولة الرومانية دونها فرصة سانحة فانتهزتها وأثار أباطرتها حربا طاحنة لا سيما أيام نقفور (نيقفراس فوكاس) و (حنازيمس) (جون سيميسز) بين عامى (٩٦٠ — ٩٧٥) بعد ميلاد المسيح ، فلم يستطع أمراء الحمدانيين الذين كانوا على حدود

دولة الروم أن يثبتوا فى ذلك النضال ، بل أخذتهم كتائب الدولة الرومانية بما لا قبل لهم به ، ثم فتحت سواحل الشام وعبرت جنود الروم نهر الفرات وكانت على طريق بغداد وذعر الخليفة المطيع حتى لقد باع عليه الأمير البويهى أثاث قصره ليستعدّ بثمنه للحرب . ولكن لحسن حظ دولة الاسلام رجعت عند ذلك جيوش الروم وانقضت تلك الموجة ولم تحطمها . كان هذا فى القرن العاشر ثم طلع القرن الحادى عشر بحظ غير هذا . وكان الأمر ككفتى ميزان اذا رجحت كفة شالت الأخرى .

فى القرن الحادى عشر استولى على بغداد قوم من الترك ، وهم السلاجقة وكان أميرهم طغرل بك رجلا من أهل السنة شجاعا ، غير مأخوذ بالألقاب ، كما كان ملوك البويهيين ، فحفظ على الخليفة جلاله وهيبته ظاهرا وأخذ فى يده أمر الدنيا يتحكم فيها بسيفه وإرادته فعلا وباستيلاء السلاجقة على بغداد سنة ١٠٥٥ بعد الميلاد (٤٤٧ للهجرة) دخلت الدولة الاسلامية فى دور غير ذلك الدور الذى مر بها فى أواخر القرن العاشر .

فقد استعادت على يدهم قوة شبابها ، أو إن لم يكن ذلك فقد عاد جيشها على الأقل الى سيرة الفتح والانتصار الذى نسيته الدولة فى آخر أيام بنى بويه ، وقد توالى على أمر الدولة العباسية ملوك ثلاثة

عظام من السلاجقة وهم طغرل بك والب أرسلان وملك شاه مابين ستى ١٠٥٥ و ١٠٩٢ (٤٤٧ — ٤٨٥ هجرية)، وكانوا فى سياستهم الداخلية مع الخلافة قانعين بالسلطان الدنيوى الفعلى تاركين كل مظاهر الرياسة والسيادة الاسمية للخلفاء من البيت المبجل الذى له المكانة السامية فى قلوب المسلمين وهو بيت بنى العباس .

وأما فى سياستهم الخارجية مع من جاورهم ، ولا سيما دولة الروم الشرقية، فقد كانوا لا يقنعون بسوى السيطرة والغلبة فبدأت جيوشهم من جبال طوروس وأرضروم، وما زالت تحدر الى الغرب فى وديان آسيا الصغرى وهضابها، وهناك شهدت مدينة قيصرية جيوشهم الغالبة ثم خضعت بلاد أرمينية والقوقاز بعد دفاع لم تستطع الثبات عليه ثم كانت بعد ذلك موقعة (ملاذ كرد) بين أرضروم و (وان) سنة ١٠٧٢ ، وكان هناك الانتصار الذى لايزال يذكر للسلطان ألب أرسلان، وأخذ الأمبراطور الشرقى (رومانوس) أسيرا وهو جريح بعد دفاع بطل مستميت، وقد سار ملك شاه بن ألب أرسلان على سنة أبيه بعد مقتله وزاد على الحرب مع الروم حروبا أخرى مع ما يليه من البلاد ، وكان من بينها بلاد الشام التى كانت لاتزال فيها بقية من حكم الفواطم وما كان عام ١٠٩٠ حتى

كان ملك شاه يطأ بحدوده الشرقية أكناف الصين ويدوس بحدوده الغربيــة عواصم الفواطم والرومان من قبــل الشام وآسيا الصغرى وتكونت دولة للسلاجقة فى أحشاء هضبة الأناضول وأملى ملك شاه إرادته على من يليه وكان من بين من يرتجفون من خوفه الامبراطور الكسيوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية .

وكانت تلك الحــروب ولا شك حروبا لا يقصد بها سوى مد السلطان والغلبة — فان السلاجقة كانوا قوما محاربين أتوا من أواسط آسيا فمــا زالوا يحاربون أمراء المسلمين الى أن دانت لهم بغداد ثم مازالوا يحاربون بعد ذلك من أجل فتح سائر مايليهم من الأقاليم وكانت تلك الأقاليم التى تليهم فى أيدى الرومان على الأكثر ولو أنها كانت فى أيدى سواهم لحاربوهم ولو كانوا من أمراء المسلمين .

وقد سببت تلك الحــروب كما تسبب الحــروب فى كل عصر عداوة بين الجانبين المتحاربين فحدثت حوادث لا يخــلو من مثلها وقت مضطرب مثل ذاك الوقت وما كانت تلك العداوة وما نشأ عنها من الحوادث لتأخذ صورة خاصة فى التاريخ لولا ما وقع بعدها من الحوادث الجليلة التى هزت العالم أجمع .

بينما كان الكسيوس يفكر فى طريق يخرجه من حرج موقفــه أمام ملك شاه اذا بالموت عدا على عدوه المخيف وتمزقت بموته دولة



خريطة حدود دولت عليه عثمانيه

السلاجقة التى بناها ثلاثة من ملوكهم العظام وهناك تنفس الأمبراطور وكان رجلا من رجال الدهاء والاحتيال فرأى أن ينتهز فرصة انثلام ذلك الهيكل العظيم الذى الى شرق بلاده فيحطمه ليأمن غائلتـه فأرسل الى فتية فى أوروبا معوّدين الحرب كى يأتوا ليعيدوا له ما فقدته دولته متناسيا ما كان بين الغـرب والشرق فى العـالم المسيحى من منافسة وخلاف وكانت الظروف مساعدة له فرأى أن يلبس الحقائق لباسا يجعله يستفيد منها .

فصوّر المسلمين أنهم قوم أتوا الى بلاده لا يقصدون إلا حربا دينية يهدمون بها ديانة المسيح . وعزا ما ارتكبه الجنود السلاجقة من الاعتداء على المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى الى رغبة كمينة فى نفوسهم فى أذى النصارى . وساعد على اذاعة أمثال هذه المزاعم جماعة من المتحمسين أمثال بطرس الراهب الذى ثارت نفسه عندما رأى قبر المسـيح فى يد السـلاجقة الظافرين وهم حديثو العهـد بظفرهم . وهكذا سمعت أوروبا نغمة لم تطرق أذنها من قبـل : دعوة الى نصرة المسيح على المعتدين المسلمين . وما هو إلا أن صرخ الكسيوس حتى أجيبت الدعوة بثورة هزت أرجاء العالم فلقـد أرسل الى البابا (اربانوس الثانى) وهو فى مجلس دينى فى (كليرمون) سـنة ١٠٩٥ يدعوه الى نصرة المسيح واسترداد بيت المقدس من

السلاجقة فما انفض ذلك المجلس حتى نادى البابا نداءه التاريخى الذى دوى فى أنحاء أوروبا . وانطلق المتحمسون فى أنحاء البلاد يصورون الاسلام ظالما عاتيا مغيرا ولم تكن حكاياتهم خالية من الحقيقة ولكنها كما قدمنا كانت حوادث طبيعية فى عصر ثارت فيه ثائرة الحروب بين متنافسين قديمين على أنه لم يكن أحد ليمحص تلك الحجج التى أوردها أمثال بطرس الراهب فثارت العاصفة هوجاء تخبط خبط عشواء .

٤ — لمــاذا لبت أوروبا الدعوة ؟

اذا كان الكسيوس قد تناسى ما كان بين دولته وبين الغربيين . فأعجب من ذلك أن يأتى الغرب الى مساعدته بتلك الحماسة العظيمة فالحق أن أوروبا فى هــذا الوقت كانت مستعدة أعظم استعداد لايقاد النيران وكان البابا والكنيسة هما الطريقان الوحيدان الى إثارة تلك النيران وقد عرف الكسيوس أن يلمس المكان الذى فيه سر الانفجار .

كان الدين فى القرن الحادى عشر سيد أوروبا وكان رجال الدين وعلى رأسهم البابا فى ذلك القرن أصحاب عواطف أهل أوروبا وكان فى أوروبا فى ذلك الوقت رجال يحبون الحرب

ويعيشون له ولا يسعهم إلا تلبية الداعى اليه ولا سيما اذا كان لنصرة الدين . وذلك كله يرجع الا أسباب لا بد من بيانها موجزة فى الفقرتين الآتيتين :

(ا) الانقلاب فى نظام أوروبا

حدث انقلاب عظيم فى نظام الدولة الفرنجية فى أواخر القرن التاسع للميلاد، وذلك أن شارل الكبير كان قد أقام دولة عظمى تشمل أكثر بلاد الدولة الرومانية القديمة ثم خلع البابا عليه لقب الأباطرة وأصبح لقبه امبراطور الدولة الرومانية الغربية ، وقد حاول شارل أن يجعل دولته على نظام شبيه بنظام الدولة الرومانية القديمة وأكبر ما كان يرمى اليه جعلها دولة واحدة وأن يكون هو على رأسها ومركزها . ولقد كان تحته طائفة من الحكام والرؤساء ولكنه عمل على أن يكونوا عمالا له مؤتمرين بأمر الحكومة المركزية ثم سار ابنه (لويس التقى) على مثل ذلك بما استطاع ، لكنه لم يكن كأبيه دراية وكياسة وقوة ، فما هو إلا أن مات لويس حتى تقسمت الدولة الرومانية الغربية الى أقسام ثلاثة بين أولاده . وبدأت بذلك أول حلقة من سلسلة تقسم لبث يحطم تلك الدولة فى آخر القرن التاسع للميلاد .

وقد كانت أوروبا فى ذلك القرن التاسع مهدّدة بأخطار جسيمة من تجدد اغارات القبائل المتوحشة وأكبرها عند ذلك قبائل النرمانديين والمجريين زيادة على ما كان يصيبها من غزو العرب فى الأندلس وصقلية وجنوب ايطاليا برا وبحرا وقد كان لهذه الغزوات أثر بعيد المدى .

كان النرمانديون يغيرون على الدولة الرومانية فى خفاف السفن من مصبات الأنهار لأنهم كانوا قوما من بلاد الشمال وشواطئ البحار لهم جراءة على المحيط ودراية بتسيير السفن وكانت إغاراتهم للسلب والتدمير ولا تستطيع دولة الرومان الغربية أن تدفعهم عن نفسها اذ لم يكن فيها مدن حصينة ولا كتائب سريعة وكان المجريون فى إغارتهم فرسانا يجتاحون البلاد ثم يعودون بعد أن يسلبوا ما شاءوا ولا تردّهم حصون ولا أسوار ولم يكن دونهم عند الفرنج كتائب ذات دراية بحركات الفرسان ولهذا استقر رأى أمراء الدولة الرومانية الغربية على أن يعنوا بأمرين لا غنى للدولة عنهما اذا شاءت حماية نفسها من أعدائها، وذانك هما بناء الحصون الكثيرة والأسوار على المدائن من جهة، ومن جهة أخرى تكوين كتائب للفرسان معوّدة الكر والفرّ على أسلوب سريع كى يستطيعوا دفع عادية المغيرين السريعين . وبذلك وجد أمراء الدولة أنفسهم بعد حين ولهم حصون

وأسوار تحميها كتائب من الفرسان مدرّبة خاضعة فكان لكل منهم بذلك دائرة خاصة به عليه حمايتها وله بطبيعة الأمر ادارتها فنما نظام جديد عرف فيما بعد فى القرن العاشر وما يليه بنظام الاقطاع .

أحدث نظام الاقطاع نقضا فى أساس الحكومة القديمة التى كانت فى أوروبا منـذ أيام الدولة الرومانيـة الأولى وذلك أن الحكومة المركزية أصبحت صورة لا حقيقة وأصبح الأمراء هم أصحاب الحكم فى جميع الأنحاء وصارت العلاقة الجديدة بين طبقات المجتمع قائمة على أساس التعاقد بعد أن كانت قائمة على أساس السلطة والسيادة يعنى أنه أصبح بين الأمراء من جانب و بين الحكومة المركزية من جانب آخر عقـد يتعهد فيـه كلا الجانبين تعهـدات يقوم بأدائها نظير حقوق يكتسبها وكانت أكبر واجبات الأمراء الاشتراك فى حروب الدولة بأنفسهم وفرسانهم وإمداد الحكومة المركزية بشىء من الأموال . وكانت أكبر حقوقهم أن يكونوا حكاما يخضع لهم من دونهم من الأمراء ويدفعون لهم الضرائب ويشتركون فيما يكلفهم به صاحب ولائهـم من الأعمـال وكان كبار الأمراء متعاقدين مع صغارهم على شروط شبيهة بتلك وهكذا كان هؤلاء مع من يليهم فكان نظام الاقطاع أشبه شىء بالهرم رأسه الحكومة المركزية وقاعدته صغار الأمراء والفرسان ثم الشعب وكان الشعب

العام مرتبطا بواجبات نحو الأمير الذى يحكم بلاده فيدفع الأموال اليه ويخضع لقضائه ويهب له مقدارا معينا من العمل فى أرضه فى نظير حماية الأمير له من اعتداء الغير وصد غارات المتوحشين عنه.

على هذا تقسمت أوروبا الى أقسام صغيرة من الاقطاعات وكانت الحكومات المركزية فى الواقع لا علاقة لها بالأفراد بل كانت علاقتها بكبار الأمراء تارة على سلم وتارة على حرب .

مضى القرن العاشر وفى أوروبا دول ثلاث كبرى كل منها مقسم بحسب ذلك النظام الاقطاعى وتلك هى ألمانيا ويحكمها حكام من أمرائها بعد انقراض أسرة الفرنجة من نسل شارلمان وكانت دولتهم مكوّنة من ألمانيا وإيطاليا واسمها الدولة الرومانية المقدّسة، ثم فرنسا ثم انجلترا .

ولم تكن تلك الدول دولا بالمعنى الحقيق اذ كان الحكام السياسيون لا يتعدّى حكمهم اقطاعاتهم وكثيرا ما كان الأمير اذا لم يجد ميدانا للحروب يصدّ فيه غارات الأجانب أو المتوحشين يغير على من يليه من جيرانه ولهذا كانت أوروبا فى ذلك الوقت وما بعده مجالا لحروب لا عدّ لها ولا حصر بين بعض الأمراء وبعض ولم تخل الحكومات المركزية من مناوأة أمرائها بل كانت تدخل فى ميادين حروبهم مؤلبة جماعة على أخرى تنتصر تارة وتنهزم أخرى .

وهكذا عاد نظام الاقطاع على أوروبا بمنافع واضرار فقد رد عنها غارات المجر والنرمان واضرابهم ولكنه نزع أمنها واطمئنانها في الداخل وجعلها بؤرة حروب دائمة .

في ذلك الوقت أتت دعوة الدولة الشرقية فما كان أسرع أمراء أوروبا وفرسانها الى الاجابة ملتمسين هناك ميدانا جديدا للحروب .

(ب) روح العصر في أوروبا

كان عهد الاقطاع بطبيعة ظروفه عهد الفروسية وما يتبع هذه الصفة من مميزات فكان الأمير بحكم تعاقده حاميا لمن في كنفه يرى نفسه سيدهم المسئول عن سلامتهم ولو كلفه ذلك بذل نفسه . وقد جرت العادة مدة طوال السنين على تقاليد صارت على مضي الزمن مبادئ يجب على الشريف أن يسير على مقتضاها فكان من مجموع ذلك قانون به تفاصيل ما يحل للشريف أن يعمل وما يحرم عليه وكانت تلك المبادئ ترمي الى حماية الضعفاء ونصرة الدين واجلال الجمال والوداعة وسوى ذلك من صفات الحسن الذي يتجلى في المرأة فكانت الشجاعة أولى صفات الشريف لا تقوم عنها صفة أخرى وكان استخدام السيف من أول ما يجب عليه إتقانه الى جانب المهارة في ركوب الخيل وأما الرماية بالقوس والسهام فكانت مما يترك للمحاربين في المحل الأدنى .



صورة محارب فى القرون الوسطى

[عن كتاب ستانلى لين بول]

وقد شهد القرن العاشر تغيرا جديرا بالذكر فى عقول أوروبا إذ قد مضت أظلم القرون مع القرن التاسع و بدأت حياة جديدة تدب الى النفوس ولو أنها لم تكن تلك الحياة الفياضة التى تمشت فى العروق منذ القرن الثالث عشر وقد بدأ دبيب تلك الحياة يظهر بشىء من الجلاء فى القرن الحادى عشر وكانت أولى علاماتها تلوح هنا وهناك إما فى بلاط ملك و إما فى حنايا دير .

بدأت الأمم الفتية تتطلع الى الماضى وترى أنفسها حفدة الرومان أصحاب المدنية القديمة فجعلت تلتمس العلم من بقايا مخلفاتها ووجدت معلمين لها من رجال الدين الذين كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض علم القدماء فانصبغت تلك النهضة الصغيرة بصبغة رجال الدين. ولما تفتحت العقول أول تفتح للمعارف وجدت الميدان الذى فتح دونها مصبوغا بصبغة الدين فكانت حماستها الشبيهة بحماسة الطفولة تدفعها الى الاهتمام بكل ما يمس الدين حتى لقد ظهر أثر هذا فى آداب العصر الذى يتكوّن من قصص العهد القديم والحديث ممثلة فى قالب روائى وكان الممثلون فى الغالب من القسوس .

ولعل ذلك العصر كان قصارى ما وصلت اليه الكنيسة من التسلط على قلوب الناس ولما يحرفهم عن عقيدتهم شىء من زيغ العلم أو شك الفلسفة حتى لكان أكبر عقاب يقع على الفرد حرمانه

من الكنيسة وإخراجه من دائرة الايمان والمؤمنين وهو عقاب أذل أكبر رأس فى العـالم إذ ذاك وهو الامبراطور نفسه وكان ذلك الحرمان اذا وقع على إقليم تعطلت شـعائر الدين فيه فلم يجد الناس من يأخذ اعتراف الميت ولا من يقرأ عليه الصـلوات التى توصله الى الآخرة وكان مثـل ذلك العقاب كافيـا لارغام أكثر الأمراء عنادا واذلال أحذهم شوكة. وكانت الكنيسة اذا فرضت على الناس فرضا يكفرون به عن ذنوبهم لم يسعهم إلا الاذعان فيصوم الفرد أو يضرب أو يذل نفسه بالسـؤال أو يشهر به ويخـرج من بلده فى زى النادم "قبعة خاصة وعصا طويلة وأقدام عارية" فيذهب الى بيت المقدس أو الى روما ليمحو ذنوبه .

وقد كانت الكنيسة عاملا من العوامل الفعالة طول القرون الوسـطى[1] وزاد نفوذها فى العصر الاقطـاعى إذ كانت هى المحكمة فى منازعات المتنازعين ترأب الصـدوع وتداوى الجروح وتجعـل للنـاس قواعد لحرامهـم وحلالهم فى الحرب تحاول بذلك تخفيـف ويلاتها . وكانت سلطتها لا تقف عند حدّ إقطاعى ولا دولة معينة

(١) القرون الوسطى اصطلاح تاريخى يقصد به الفترة بين سقوط مدينة رومة فى أيدى البرابرة سنة ٤٧٦ للميلاد وبين بدء التاريخ الحديث الذى يوضع حدّه عنـد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ للميلاد .

بل تشمل جميع أتباع المسيح المؤمنين بها فى وقت لم يكن هناك مركز سياسى قوى لانفراد كل أمير باقطاعته مستقلا بأمره — وعلى ذلك كان سلطان الكنيسة هو السلطان العام الوحيد الذى يشمل جميع أنحاء أوروبا .

وقد اتفق فى أواخر القرن الحادى عشر حدوث نضال كبير بين الامبراطورية (السلطة الدنيوية) وبين الكنيسة (السلطة الدينية) وكانت نتيجة ذلك النضال انتصارا باهرا للبابا وذهب الامبراطور العظيم وهو إذ ذاك "هنرى الرابع" الى البابا "جريجوار السابع" فى قرية "كانوسا" بايطاليا وهناك وقف حاكم الدنيا أياما ثلاثة عند باب رئيس الكنيسة عارى الرأس حافى الأقدام يطلب العفو والصلح .

وعقب ذلك بسنين قليلة كان البابا "أربانوس" فى مجمع من رجال الكنيسة فى "كلرمون" فأتاه صريخ امبراطور الدولة الشرقية يدعوه للمساعدة فى حرب المسلمين . فما انفض ذلك المجلس سنة ١٠٩٥م حتى كان البابا قد أعلن حربا لنصرة المسيح والصليب على المسلمين واستنقاذ بيت المقدس منهم فأية صيحة تكون صيحة البابا فى مثل هذا العصر؟ لقد كانت صيحة ترددت كالرعد القاصف وسارع الى تلبيتها شعب مؤمن مطيع على رأسه طائفة من الأمراء الذين لهم دراية بالحروب وبهم غيرة على الدين ورغبة فى نصرته .

٥ — انتصار الصليبيين

بدأت الحرب الصليبية فذهبت جموع بعد جموع فى سنة ١٠٩٦ (٤٨٩ هجرية) ولكنها لم تتم شيئا ثم تبعتها جموع أخرى فى سنة ١٠٩٧ بقيادة أربعة من كبار أمراء أوربا وهم (جودفرى) حاكم بولونى و (ريمون كونت طولوشه) و (بالدوين) أخو (جودفرى) و (بوهمند) ابن (روبير جيكار) النرماندى حاكم جنوب إيطاليا وصقلية . وكان يساعدهم آخرون من الأشراف والفرسان فلما بلغت الحملة القسطنطينية استوثق الامبراطور الكسيوس من حلفائه أنهم يردون اليه ما سلبه الاسلام من بلاده ثم سمح لهم أن يجتازوا بأرضه فساروا وعبروا المضائق وهزموا المسلمين فى الأناضول وكانوا أشتاتا بعد ذهاب ملوكهم الكبار وكان أكبر انتصار للصليبيين عند (دوريليوم) أو (اسكيشير) فى غرب آسيا الصغرى ثم ما زال النصر لهم الى أن أتموا السير وبلغوا الشام وأقاموا دولا أربعة اقتطعوها من أرض الاسلام وهى (الرها) و (أنطاكية) و (طرابلس) و (بيت المقدس) وجعلوا الملك فى يد حاكم بيت المقدس وهو (جودفرى) وقنع الباقون من الأمراء بالولاء له حسب النظام الاقطاعى فى أوروبا وجعلوا نظام الحكم فى تلك البلاد على الأسلوب الاقطاعى وتم ما أرادته أوروبا وردت موجة الفتح الاسلامى عن أسوار القسطنطينية



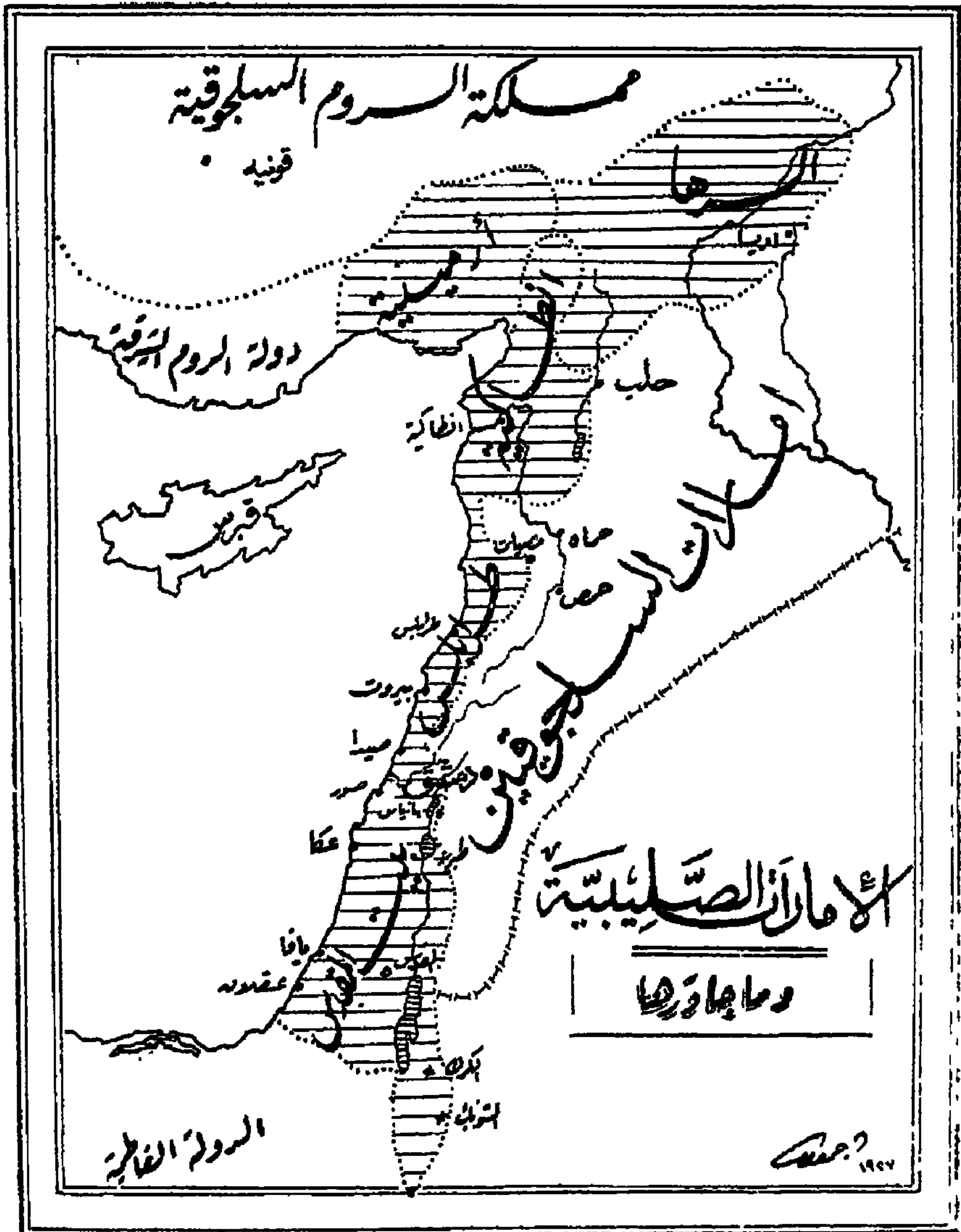
صورة خيالية لفتح أنطاكية

بتلك الضربة الشديدة ولن تعود الدول الاسلامية الى محاولة فتحها من جديد إلا بعد أن تفيق منها وذلك بعد نيف وثلاثة قرون على يد الأتراك العثمانيين .

٦ — العالم الاسلامى يستجمع قوته للدفاع

كان العالم الاسلامى فى ذلك العصر أى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر ينقسم أقساما ثلاثة كبرى ولكل منها فروع وأجزاء ففى طرفه الغربى كانت دولة الأندلس وقد عبرت اليها جموع المرابطين من أفريقيا فهزمت المسيحيين الأندلسيين وأعادت اليها شيئا يشبه ما كانت عليه من القوة أيام دولة بنى أمية وبعد المرابطين يأتى اليها الموحدون من افريقيا فيرفعون علمها الى أواخر القرن الثانى عشر ثم تحطم تلك الدولة حتى لا يبقى منها إلا غرناطة لتشهد تاريخ القرون التالية .

وكان فى افريقيا الشمالية من الغرب دول يرتبط تاريخها بتاريخ دولتى المرابطين والموحدين . وأما فى الشرق فكانت دولة العبيديين أو الفاطميين وقد بقيت هناك الى أواخر القرن الثانى عشر حتى قضى عليها البطل الكبير يوسف بن أيوب صلاح الدين كما سيأتى وكان فى شرق هذه البلاد رقعة الدولة العباسية مقسمة بين أمراء



خريطة الامارات الصليبية

السلاجقة بعضهم من نسل ملك شاه وبعضهم من نسل قواده ورجاله وكان للخلافة على هؤلاء سيادة اسمية لا تكاد تعدو السكة (النقود) والخطبة فى المساجد ولم تكن بين دول الاسلام رابطة متينة بل ان اثنتين منها كانت على خلاف ومنافسة بل على عداء وهاتان هما الدولة العباسية والدولة الفاطمية فان الأولى كانت دولة سنية والأخيرة كانت شيعية ولكل من الدولتين خليفة يرى نفسه أحق بأن يدعى له على المنابر جميعها فكان من الطبيعى أن العالم الاسلامى عندما صدمته الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر لم يكن متماسكا بل كان مقسما الى دول متنافسة ولم تكن الدولة العباسية فى ذاتها دولة بالمعنى الصحيح بل كانت مقسمة الى إمارات كل منها مستقل بأمره لا تربط بينها إلا جامعة اسمية لا حقيقة لها وكانت الدولة العباسية هى التى قابلت الصدمة فلم تقو على احتمالها ثابتة بل تصدعت وتداعت وخيل للناس أن قد هوت وضاع أمرها ولم تجد لها نصيرا لا من داخلها إذ كانت كلمتها مفرقة ولا من خارجها إذ كان الفواطم أقرب الى الشماتة بها . وكان أهل أفريقيا والأندلس فى شغل بأمرهم عن أن يمدوا مساعدة لأحد آخر وزد على ذلك بعد الشقة وقلة الارتباط . ولكن ذلك التصدع لم يكن إلا ظاهرا فان الدولة الاسلامية مانت

أمام الموجة القوية ولم تكن هزيمتها انكسارا . بل ان العقيدة لم تتزعزع فى وقت من أوقات تلك المحنة ولم يكن فى الناس شك من أمرهم بل ظل فى نفوسهم إيمان صادق ان مآل تلك الموجة التى أتت من وراء البحر الى الضعف وأنه لابد من الانتصار عليها وردها من حيث جاءت بعد حين . وقد ظهرت هذه العقيدة فى كثير من الوجوه فما كادت الأمة تفيق من الصدمة الأولى حتى أخذ رجالها يعملون على إظهار تلك العقيدة الكامنة . وكان أول من أظهرها أتابك عماد الدين زنكى صاحب الموصل(١) إذ استولى على أمارة (الرها) فى عام ١١٤٤م — ٥٣٩هـ. بعد أن هزم الصليبيين.

(١) هو ابن أحد أمراء العسكر تحت ملكشاه وهو آقسنقر . وقد أظهر عماد الدين بعد موت أبيه شيئا كثيرا من الشجاعة والأقدام حتى أن السلطان محمود السلجوقى أقطعه واسط (سنة ١١٢٢ م الموافقة لسنة ٥١٦ هـ) ثم أقطع الموصل والجزيرة وأعطى لقب «اتابك» ومعناه الأمير الحاكم وكانت أيامه كلها اضطراب من جميع النواحى لضعف الحكومة العباسية واضمحلال أمر حماتهم سلاطين السلاجقة ولهذا كان نفوذ أمراء النواحى بالغا أعظمه وكانت نتيجة هذا أن زاد أمر الصليبيين وعظم بلاؤهم فيما يليهم من بلاد الاسلام فتجرد عماد الدين الى إعداد العدة لحربهم وكان أول نصر أعلى من شأنه فتح حلب وقد تحاشى الدخول فى المنازعات الكثيرة التى كانت لا تنقطع فيما بين أمراء السلاجقة من جهة وبين السلاجقة والخليفة من جهة أخرى . بل جعل كل همه مكافحة الفرنج بالشام ففتح منهم فتوحا ثم توج كل أعماله بفتح الرها (اذاسه) (١١٤٤ م — ٥٣٩ هـ.) وكان لسقوطها فى يده دوى عظيم فى أوروبا اهتزت له شعوبها وجهزت عقب ذلك حملة كبرى تعرف بالحرب الصليبية الثانية .

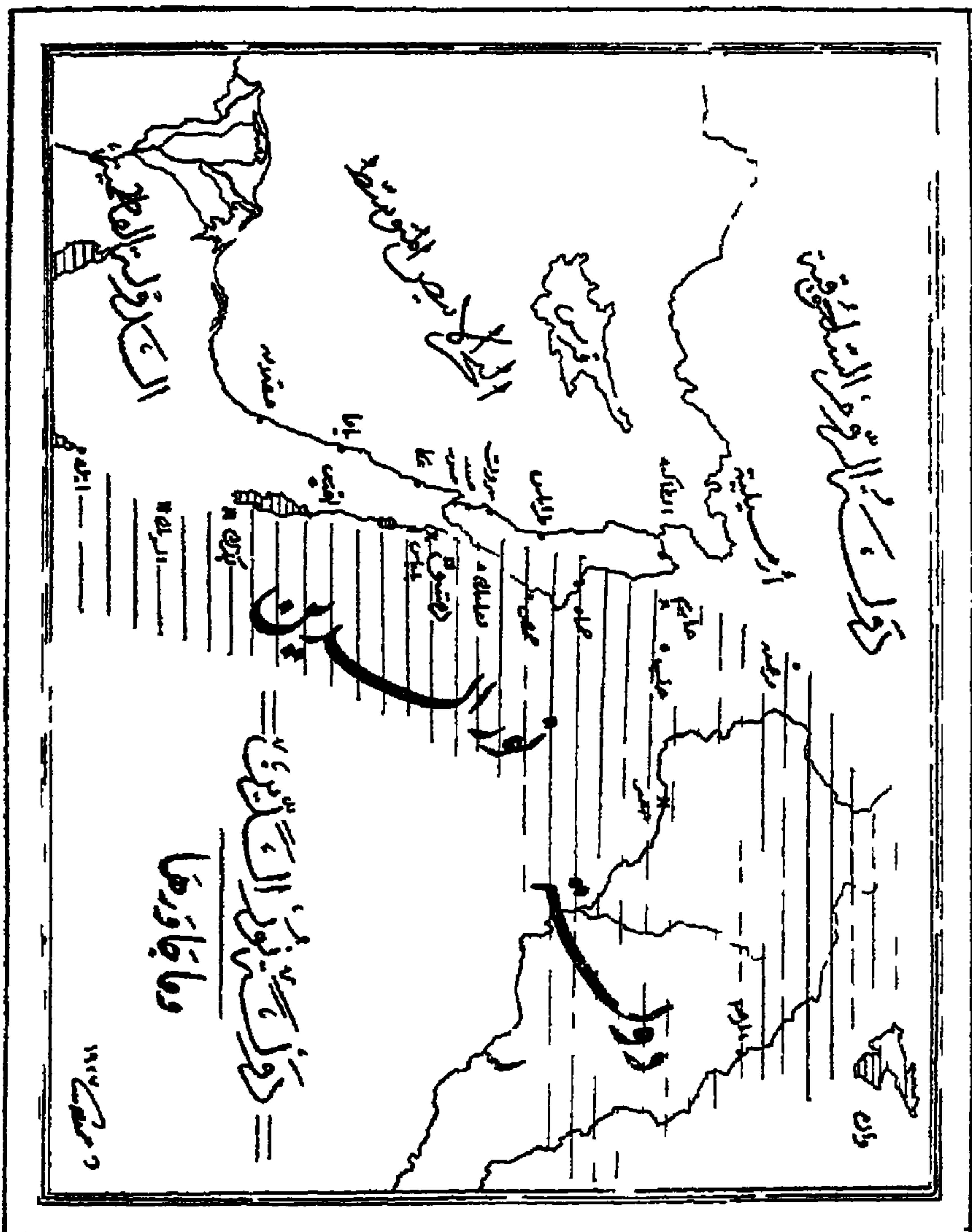
فزعت أوروبا عند ذلك وجردت الكتائب لاسترداد مافقده الصليب ولكن الذى ينعم النظر فى تلك الحرب الثانية لايسعه إلا أن يلاحظ أن الحماسة الدينية قد خبت قليلا فى قلوب أهل أوروبا . وقد عجزت كتائب المسيحيين عن استرداد الرها مع اشتراك اثنين من كبار الملوك المسيحيين فى الحرب وهما الامبراطور كنراد الثالث عاهل الدولة الرومانية المقدّسة ولويس السابع ملك فرنسا وقد استمرت الدولة الاسلامية على محاولتها الأولى تسعى للخلاص من الأغراب الذين أخذوا بعض بلادها الى أن ظهر رجل الجهاد الأكبر وهو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بجعل حياته لاظهار عقيدة الأمة الاسلامية فى النصر ظهورا واضحا[١] .

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد رجال هذا الأمير العظيم وسيفا من سيوفه . وليس بعجيب فى التاريخ أن ينشأ رجل

(١) مات عماد الدين زنكى شهيدا بعد أن فتح كثيرا من بلاد الفرنج وذلك أنه قتل فى نومه — قتله جماعة من مماليكه بتحريض أعدائه وكان من خير أمراء المسلمين سيرة وعدلا واصلاحا لموارد الثروة والتماس سبل الخير للناس . هذا عدا تعضيده للعلم والادب . فلما توفى ترك أولادا أربعة أكبرهم سيف الدين غازى . وثانيهم نور الدين محمود وقد استولى الأول على الموصل والجزيرة وورث الثانى إمارة حلب . وكان ابنه نور الدين جنديا شجاعا وهو فى الوقت نفسه فقيها عالما وكان بحكم وجوده فى حلب أقرب الى حدود الفرنج ولهذا كان هو صاحب حروبهم . وقد قابل نور الدين =

تابعا لعظيم ثم يعلوا شأنه ويظهر أمره حتى يغطى ذكره على ذكر سيده ويصبح المجد والعظمة للتابع دون المتبوع .

= صدمة الحرب الثانية التى أثارتها أوروبا لاسترداد اداسه حتى اذا ما انقصت موجتها وخبت نارها عاد الى سيرة أبيه فبدأ يغير على الامارات الصليبية وكانت وطأته فى حروبه أشد من وطأة أبيه ونصره أكثر اطرادا . وقد فكر فى أخذ دمشق لكى يضمها الى دولته فيكون قوة له فى حربه ضد الفرنج وحانت له فرصة رضى أهلها بالانضمام الى دولته فدخلها بغير حرب وسط تهليل الناس وأعطاه الخليفة لقب (الملك العادل) عقب ذلك الفتح (سنة ١١٥٤م — ٥٤٩هـ) وما زال أمره بعد ذلك فى نمو حتى أرسل الحملة الى مصر (سنة ١١٦٤ — ٥٥٩هـ) .



حريطة دولة نور الدين وما حاورها

٧ — الدول الاسلامية بالشام والجزيرة ومصر

(أ) الشام والجزيرة

قتل عماد الدين زنكى وهو فى ميدان الحرب وبعد مقتله تقسمت دولته بين ابنيه وأولهما سيف الدين غازى الذى استولى على الشرق وجعل مقرّه الموصل . وثانيهما نور الدين محمود الذى استولى على الغرب وجعل مقره حلب، على أن نور الدين هو الذى سار على سنة أبيه وقد عاش مدّة أطول من أخيه ولهذا تمكن من بسط سلطانه على البلاد التى ورثها أبوه الشهيد عماد الدين واستولى على غيرها مما فتحه من أملاك المسلمين المستقلين أمثال دمشق وبعلبك ومما فتحه من أملاك المسيحيين بعد أن فشلوا فى حملتهم الثانية التى اشترك فيها كنراد الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدّسة ولويس السابع ملك فرنسا .

وقد كانت سياسة نور الدين فى فتح البلاد التى بيد أمراء من المسلمين أن يقنع بدخول الاقليم فى دائرة دولته — لا يريد من وراء ذلك زيادة فى الملك والثروة بل كان كل قصده أن يجعل تحت سلطته دولة قوية يستطيع أن يصدم بها الصليبيين صدمة قوية

تصدع أركان دولتهم فانه قد جعل قصد حياته الجهاد وإخراج المسيحيين من بلاد الشام وكان قوى الايمان بما هو فيه من عمل ينظر الى حروبه نظرة شبيهة بنظرة المسلمين السابقين فى أول الاسلام الى حروبهم مع أعدائهم ولا أدل على ذلك من أن أخا له فقد عينا له فى موقعة إذ أصابه فيها سهم. فقال له معزيا «لو كشف لك عن الأجر الذى أعدّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى» فكان ذلك الرجل المجاهد لا يتطلع إلا الى جمع الدولة الاسلامية تحت يده لتكون له قوة على الجهاد . فكان اذا فتح حصنا اسلاميا سلك أحد مسلكين : فاما أقر عليها حاكمه الأوّل اذا اطمأن اليه وعرف أنه يقدر على الدفاع عنه والبقاء الى جانبه وإما أن يقطع ذلك الحاكم أرضا بدلا عن حصنه ويضمه الى بلاده وقد كان اذا أعطى بدلا أجزل فى عطائه كيما يرضى المحروم وأمثلة هذا كثيرة، منها أنه عندما استولى على قلعة (جعبر) وهى حصن منيع على الشاطئ الشرقى للفرات الأعلى أعطى صاحبها شهاب الدين العقيلى اقطاعا عظيما بدلها قرب (حلب) ومقدارا من المال (نحو عشرين ألف دينار) وما كان فى تلك القلعة من غنى ينتظره أو مال يحصله إلا أنها موقع حربى ينفعه فى غرضه ويمكن أن نصف دولة نور الدين بأنها كانت دولة إقطاعية على نسق الاقطاع فى أوروبا فقد كان

العصر عصر إقطاع فى الشرق والغرب على السواء. وكان هو رئيس تلك الدولة الأعلى وتحت أمره عدد كبير من الأمراء كل فى جهته يحكم مستقلا على أن يكون هو وجنوده فى حروبه . ومما يسترعى النظر فى تلك الدولة كثرة القلاع الحصينة والقصور المنيعة المبعثرة فى السهل وعلى قمم الجبال . ولعل الأسباب التى دعت الى بناء تلك القلاع فى الغرب فى أوروبا هى نفسها التى دعت الى بناء مثلها فى الشرق الاسلامى فقد كانت الحكومات المركزية فى ذلك الوقت مزعزعة . وكانت الاغارات كثيرة لا حصر لها بين ترك يغيرون من الشرق ومسيحيين يغيرون من الغرب وفرق دينية (كالشيعة الاسماعيلية)[1] تهبط بين حين وحين كالعاصفة المخربة — ولهذا كانت حاجة الشرق الى القلاع والفرسان مثل حاجة الغرب على السواء . ونشأ من هذه الحاجة نظام اقطاعى كما نشأ فى أوروبا لنفس الأسباب .

---

(١) مذهب الشيعة فى أصله مذهب سياسى يرمى الى تفضيل بيت الرسول فى وراثة الدولة الاسلامية واذا قيل بيت الرسول فانما يقصد به نسل على من فاطمة زوجه ابنة النبى عليه الصلاة والسلام — ولكن الشيعة ساروا على مناهج خاصه فيما بعد فى تعبدهم حتى لقد اتخذت مذهبا دينيا خاصا و بذلك صارت الشيعة فرقة دينية سياسية فى آن واحد . ثم غلا أصحاب هذا المبدأ فأدخلوا على مناهجهم كثيرا من البدع والرسوم من مذاهب غير المسلمين واتخذ جماعة من الثوار على الدولة الإسلامية مذهب الشيعة وفكرتها وسيلة =

(ب) مصـــر

أما فى مصر فكانت دولة أخرى تخالف ما فى الشام والجزيرة فى وجوه كثيرة — فقد كانت دولة الفواطم وهم شيعة علويون لهم خليفة غير خليفة السنيين وحكومة مستقلة موحدة . ومدنية تالدة خلفها مؤسسو الدولة منذ قرنين .

وكانت مصر فى القرن الثانى عشر ميدانا لحوادث عظيمة كان لها أثر كبير فى مصير العالم الاسـلامى . كان شعب مصر الهـادئ

= يصلون بها الى اغراضهم فى الهدم ومن هؤلاء مؤسس فرقة الاسماعيلية وهو الحسن ابن صباح (والاسماعيلية نسبة الى إسماعيل بن جعفر الصادق أحد الأئمة من نسل على) كان الحسن بن صباح رفيقا فى الصبا لنظام الملك الذى صار وزير السلطان السلجوقى العظيم ملك شـاه . وقد عجز عن أن يبلغ مأربه من السياده فى تلك الدولة فلجأ الى الهدم فأسس فرقة غرضها القتل والفوضى وكان أفرادها يدعون لمذهب الشيعة — وقد اتصل بالفاطميين بمصر وهم من الشيعة الاسماعيلية كذلك وجعل يدعو لهم بنفسه ورجاله الذين انضموا اليه وكان من بينهم جماعة يطيعون طاعة عمياء ويسمون الفدائيين وهم الذين يقومون بأعمال القتل التى يأمر بها رئيسهم وكانوا يلقبونه « بالسيد » و « سيدنا » « وشيخ الجبل » وكان نظام هـذه الطائفة سريا عجيبا نسجت على منواله الجمعيات السرية فى بلاد أوروبا وآسيا ، وقد نجح ابن صباح فى الاستيلاء على قلعة (الموت) الحصينة . ويطلق عليها « وكر العقاب » فى جبال ما زندران بفارس . وهذه الجمعية هى التى قتلت نظام الملك . رفيق ابن صباح القديم ، وكان لها أثر كبير فى تلك العصور اذ قتل على يد الفدائيين عدد كبير من أماثل الرجال وعجز عن القضاء عليها كبار القواد مثل ملك شاه وصلاح الدين فبقيت الى أن قضى عليها أخيرا سيل التتار الجارف .

المنصرف الى أعمـاله تاركا الحكم الى حكامه الذين اسـتولوا على البلاد عنوة منذ أيام المعز لدين الله فى أواخر القرن العاشر للميلاد . وكان المصريون من أهل السنة ولكنهم خضعوا لتلك الدولة الشيعية وانصرفوا الى أعمالهم لا يهتمون بشىء من أمر الدولة اذ كانت الحكومة على وجه الاجمال لا تتداخل كثيرا فى عقائدهم .

وقد حدث على مر الأيام شىء عظيم من التفاهم بين الحـاكم والمحكوم حتى كادت الشـيعية المصرية تكون سنية إلا فى بعض المظاهر والرسوم . ولكن هدوء تلك البلاد لم يبق كما كان بل حدث تغير فى القرن الثانى عشر عند ما ذهبت أجيال الخلفاء العظام من الفواطم ووقع الأمر الى سلسلة متأخرة من خلفاء لا حول لهم ولا قوة فصار الحكم الى قواد الجيش والوزراء من عز منهم غلب واستولى على الخليفة . وكان الخليفة فى العادة يختار طفلا من البيت الفاطمى فكان بعضهم لا يعـدو سنّ الرابعة كالفائز بنصر الله الذى حكم بين سنتى (١١٥٤ — ١١٦٠) من الميلاد (٥٤٩ هـ — ٥٥٥هـ) وجاء بعده العاضد لدين الله وكان فى التاسعة من عمره عند ما صار خليفة بمصر .

فى أثنـاء ذلك العصر كان نور الدين قد هزم الفرنج ووحد دولة عظيمة فى الشام والجزيرة . وكان من بين الوزراء بمصر من

طمع أن يجعل صـلة بين دولة نور الدين وبين مصر وذلك هو الرجل العاقل الصالح ابن رزيك لولا أن اختلاف المذهب الديني كان حائلا لا يمكن تجاوزه .

وكان الصليبيون يعرفون أن مصر بلاد غنية وأنها اسهل فتحا من قلاع الشام وليس بها أمثال نور الدين وجنوده . وكانوا يتطلعون الى أن يقيموا ضعفهم بضمها الى ملكهم ولولا خشية نور الدين أن يهوى على بلادهم فى أثناء محاولتهم ذلك الفتح لبدءوا به منذ أخفقوا فى الاستيلاء على دمشق واسترجاع الرها فى حربهم الثانية فى منتصف القرن الثانى عشر .

ولقد جرت بمصر حوادث وأراد القائمون بها الانتفاع بالموقف السياسى الذى حولهم ، فكانت النتيجة الطبيعية تنافسا بين الدولتين المجاورتين على أيهما تدخل تلك البلاد وتسود فيها وتانك الدولتان هما دولة نور الدين ودولة الصليبيين .

سـاد على مصر فى سنة ١١٦٤ (٥٦١ هـ) رجل من العرب اسمـه شاور واستبد بأمرها بعد أن قتل العادل رزيك بن الصالح رزيك الوزير الكبير . وقد نازعه فى الأمر أمير عربى آخر من قبيلة لخم من بلاد الصعيد واسمه ضرغام ، وكان آخر النضال بين الزعيمين أن هرب شاور يلتمس مساعدة من الخارج على خصمه فذهب .

الى نور الدين وعرض عليه شروطا مغرية اذا هو اعانه على استرجاع أمره بمصر، وكان نور الدين يتطلع الى التدخل فى تلك البلاد فسنحت له تلك الفرصة. وكانت شروط شاور أن يعطى لنور الدين نفقات الحملة وثلث ايراد مصر جزية سنوية . وقد ساعدت الظروف على أن يسرع نور الدين باجابة شاور الى ما سأل لأن ضرغام منذ أحس بسعى شاور أخذ هو من جانبه طريقا آخر يزعم فيه سلامته فأرسل يستعين بالدولة الأخرى دولة الفرنج بالشام فلم يتردّد نور الدين بعد ذلك بل أرسل جيشا مع شاور وجعل عليه مقدّم جيشه أسد الدين شيركوه بن شادى وجعل معه الشاب الممتاز يوسف بن أخيه أيوب بن شادى .

الكتاب الثاني

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى

١ — منشــؤه وشــبابه

يحيط جو من الأبهام حول نشأة يوسف بن أيوب ونسبه وذلك شأن كل رجل ينبغ من صفوف العامة فيبلغ أقصى ذرى العظمة وقد حاول بعض من كتبوا عنه أن ينسبوه الى أسرة عريقة وعرق شريف ولا يسع الانسان إلا أن يبسم عندما يرى أمثال هؤلاء المتحمسين من الكتّاب يوصلون نسبه الى معدّ بن عدنان بل الى آدم عليه السلام .

على أنه لا يغض من قدره أننا لانستطيع أن نتعدّى فى نسبته الجدّ الأوّل فهو يوسف بن أيوب بن شادى وليس بعد شادى من الأسماء ما نقدر على التثبت منه .

كان أبوه وأهله من قرية (دوين) فى شرق اذربيجان . وهم من بطن (الروادية) من قبيلة (الهذانية) وهى قبيلة كبيرة من قبائل



صورة صلاح الدين الأيوبى (خيالية)

الأكراد ويظهر أن جده شادى نزح بولديه أيوب (نجم الدين) وشيركوه (أسد الدين) الى بغداد ثم نزل بتكريت حيث مات شادى وقد نشأ الأخوان بعد ذلك والتحقا فى خدمة متولى الشحنة بالعراق (مجاهد الدين بهروز) الذى كان متوليا من قبل السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملك شاه السلجوقى . ثم انتقل نجم الدين أيوب الى خدمة عماد الدين زنكى صاحب الموصل أوّل أبطال دول الاسلال الجديدة وصار حافظ قلعة بعلبك أو (دزدارها) فلما قتل زنكى انتقل نجم الدين الى خدمة صاحب دمشق والتحق أسد الدين أخوه بخدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى وهو إذ ذاك صاحب حلب ورثها حظه من دولة أبيه بعد موته وكان له أخ ورث نصيبه الموصل وما يليها وهو سيف الدين غازى بن زنكى. وفى أثناء تلك الحوادث ولد لنجم الدين ولد سماه يوسف ولعل ولادته كانت فى ليلة خروج أبيه من تكريت الى خدمة عماد الدين زنكى وذلك حوالى ١١٣٨ للميلاد (٥٣٢ هـ) . وقد نشأ فى كنف أبيه بدمشق وظل أبوه هناك الى أن أوغل نور الدين بفتوحه الى الجنوب واستولى على دمشق فانضم الى خدمته وكان اذ ذاك يوسف قد ترعرع وصار فتى فى السادسة عشرة من عمره فدخل فى خدمة نور الدين مع أبيه وعمه . وكانت مخايل النجابة ظاهرة عليه .

فكان نور الدين يؤثره ويقربه ويلوح أن الفتى كان حادّ الذكاء ، له عقل ناقد فأدرك ما فى طبع سيده من كرم وعلو وشهامة وجعل يأخذ نفسه بما أعجبه من صفاته .

على أننا لانتكر أننا لسنا نقدر أن نعرف عن شباب صلاح الدين شيئا كثيرا ولا غرابة فى ذلك فقد كان أحد صغار الملحقين بالجيش فلم يكن دونه مجال للعمل والظهور الى جانب الكبار من قواد الجيش وشجعانه وكان جيش نورالدين فى هذا الوقت يحوى جماعة كبيرة من المبرزين الشجعان . وليس يذكر لنا صلاح الدين شيئا عن شبابه إلا أنه كان يترحم عليه ويحن اليه وذلك أمر طبيعى لكل كبير السن اذا نظر الى الشيب وعجزه . وأما غير ذلك فلانسمع السلطان فيما بعد يذكر عن أعماله شيئا فى وقت صغره ويمكن أن نعزو هذا الى حسن بصره وتواضعه فأكبر الظن أنه يأبى أن يذكر لنفسه شيئا فى وقت كان فيه صغيرا بين كبار يجلهم ويعرف لهم فضلهم ، وأول ما يذكره التاريخ عن شباب يوسف بن أيوب وقت اشتراكه فى الحملة على مصر مع عمه أسد الدين شيركوه .

ولانملك النفس عن ذكر حقيقة نراها قد تساعد على أن تظهر لنا صورة ذلك الرجل قريبة من الوضوح وذلك أنه قد كان فى شبابه يسيم سرح اللهو حيث يسيم أمثاله من الفتيان . فانه تاب

عن الخمر وغير ذلك من اللهو وهو فى مصر بعد أن حمل عبء الوزارة وصار من رجال الأمر نخلع عنه ما لا يليق به فى مكانته الجديدة وهل من الغريب ألا يكون الشباب معصوما ؟ وهل ينقص من الرجل أنه كان يتذوق اللهو حلوا فى جهله وسورة شبابه فاذا هو شعر بالواجب وثقله رمى عن نفسه لهوها وفرغ الى واجبه يتذوق حلاوة القيام به بنفس الهزة التى كان يشعر بها فى لهوه ؟ على أنه بقى الى آخر حياته محتفظا بالميل الى لذات أخرى لا عار من أن يلذها الرجل فقد كان منذ شبابه مغرما بالصيد صيد الظباء فى الصحراء وسماع الأدب الطريف فى المجالس الحافلة بالأصدقاء أو بالعلماء وأهل الفضل .

وكان أول عهده بالعمل الجدى خروجه الى مصر فى صحبة عمه أسد الدين شيركوه فى سنة ١١٦٤ للميلاد (٥٥٩ هـ) وسنه نحو ست وعشرين سنة .

٢ — الحملات الى مصر

ذهبت الحملة الأولى الى مصر لمساعدة شاور فى أبريل سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) وهزم الجنود الأتراك الذين مع شيركوه جيش ضرغام عند بلبيس وسارت الجنود المنصورة الى القاهرة.

وهناك وجد ضرغام نفسه مخذولا وليس حوله من يثق به أو يركن اليه وتخلى عنه الخليفة الذى كان لا يثبت فى جانب وزير مقهور وله فى ذلك العذر اذ لقد كان الوزراء أيام قدرتهم لا يرعون له حقا بل يجعلونه أشبه شيء بالأسير فى قصره . وكانت آخرة ضرغام على يد شعب القاهرة اذ ثار به فاحتز رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة وتم النصر لشاور منافسه .

على أن شاور بعد ذلك رأى الأمر قد تم كما أحب فلم تعد به حاجة الى حلفائه شيركوه ومن معه وكان قد احتاط لنفسه بجعل جيش شيركوه خارج القاهرة قرب النيل — ولم يتحرك الى الوفاء بما كان قد تعهد به لنور الدين فبدأت مشادّة بينه وبين حلفائه السابقين أدّت الى أن أنفذ شيركوه بن أخيه صلاح الدين الى بلبيس كى ينزعها لتكون هى وإقليم الشرقية فى يده رهنا فأرسل شاور الى (امرى) ملك بيت المقدس (املريك) يطلب مساعدته على جيش نور الدين وكان (امرى) لا يستطيع أن يرفض ذلك الطلب اذ كان يتطلع الى امتلاك مصر لا يمنعه إلا خوف نورالدين فلما بلغته دعوة شاور ضمن أن يكون المصريون الى جانبه فأقدم . وهكذا كان شاور يلعب بالنار التى ستحرقه .

بقى الجيشان الأجنبيان يتطاحنان قرب بلبيس وكان نور الدين فى أثناء ذلك يهوى بجنوده على أملاك الصليبيين بالشام ففتح قلعة (حارم) الى غرب (حلب) وبهذا صارت انطاكية مهددة باغاراته ثم جد فى حصار حصن (بانياس) بقرب دمشق فكان على (امالريك) أن يعود قبل أن يتسع الخرق وكان شيركوه لا يعلم بذلك الانتصار الذى أحرزه نور الدين وكانت جيوشه تحارب على قلة من المؤونة ولم يكن له عند بلبيس حلفاء يساعدونه ولا حصن يمتنع فيه ولهذا سره أن يفاتحه الفرنج بالصلح على أن يخرج هو وهم جميعا من مصر وكان منظر خروج جيش شيركوه من بلبيس فى أكتوبر سنة ١١٦٤م (٥٥٩هـ) أشبه شيء بالنصر وذلك أن الجيش سار عن بلبيس وجاء فى آخره أسد الدين شيركوه يحمل فى يده لتا من حديد يحمى ساقتهم ووقف حول الجيش جمع من مسلمى مصر ومن الفرنج ينظرون اليه وهو يخرج عن البلاد. فقال له أحد الفرنج «أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك حتى لا تبقى لك بقية» فأجاب شيركوه «ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما أفعل . كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجالا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين فلا يبقى منهم أحدا» .

فى مثل هذه الحال وفى مثل ذلك الجو المعنوى — بدأ صلاح الدين أول جولة جدية له فى غمار الحياة العملية .

مضى بعد ذلك أكثر من عامين كان فيهما شاور سيد الدولة بمصر وكان شيركوه فى أثنائهما يردّد أمله فى العودة الى مصر لامتلاكها وكان يحرّض نور الدين بكل وسائل التحريض وهو يعلم أن أقرب الحجج الى نفسه أن مصر تساعده على جهاده مع أعدائه الفرنج وكان يسهل له فتحها قائلا «انها دولة بغير رجال» ولكن يجب أن لاننسى أن ثروة مصر أيضا كانت من أكبر حجج شيركوه أمام نفسه وأمام سيده وكان الخليفة العباسى عند ما علم بما يقصده شيركوه يساعد على غزو مصر بتحريضه ودعواته فان بيت بنى العباس لم ينس أن بيت فاطمة فى مصر كان منافسا خطيرا وأن الشيعة العلوية بدعة يجب أن تزول فلا يبقى على الأرض إلا السنّة وأتباعها .

وقد كان نور الدين يتردّد فى إنفاذ تلك الحملة التى يحرضه شيركوه على إرسالها . ولكنه علم أن الصليبيين على نية غزو مصر، فجعله ذلك يعزم وما كان أقل جيشه عددا فقد كان نصف عدد أوّل فرقة أنفذها عمر بن الخطاب الى مصر إذ كانوا لا يزيدون على ألفى رجل على الأصح ولو أن الفرنج يبالغون فى عدد ذلك الجيش . على أنهم كانوا ألفين من فرسان أبطال، وكان صلاح الدين مع عمه هذه المرّة أيضا .

سارت الكتيبة فى أوائل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ هـ) الى شرق النيل عند اطفيح وعبرت الى البر الغربى من هناك فأقبل (أمرى) بجيش كبير من الشام فانضم الى جيش شاور وكان عدد جنوده من الفرنج والمصريين معا أكثر بكثير من عدد جيش شيركوه ولو أن الفرنج يدعون أنهم لم يكونوا فى كثرة .

بعد حين كان الجيشان أحدهما عند الفسطاط وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج . والآخر وهو جيش الأتراك (شيركوه) عند الجيزة فى البر الغربى . ومضت فترة انتظار كان فيها الصليبيون يستوثقون لأنفسهم بمعاهدة أمضاها الخليفة العاضد بنفسه وحلف عليها على أن يعطى الفرنج مائتى ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ثمنا لمساعدتهم .[1]

(١) جاء فى كتاب صلاح الدين تأليف استانلى لينبول :

« أختير هيو حاكم قيصرية وجوفرى فارس المعبد رسلا من الملك (أمرى) وقد سار بهم الوزير بنفسه وجعل يقتحم بهم كل رسوم الأوضاع السرية . فسار بهم فى ممرات خفية وأبواب عليها حراس من أقوياء السودان وكانوا يحيونهم بسيوفهم المجردة حتى بلغوا صحنا فسيحا لا سقف له إلا السماء وحوله أقبية قائمة على عمد من الرخام وكان السقف المزخرف مرصعا بالذهب مزينا ببديع الألوان وأما الأرض فكانت من الفسيفساء البديعة ، وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين اللذين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال . فكانا يريان هنا فوارة من الرخام تحيط بها طيور =

بعد ذلك عبر جيش الفرنج والمصريين الى الغرب على غرة من شيركوه فاضطر هـذا أن يتقهقر الى الجنوب حتى بلغ (البابين) فى جنوب المنيا وهناك على حافة السهل الغربية من قبل الصحراء. وقف شيركوه باصحابه واستعدّ للحرب رغم نصح بعض قوّاده

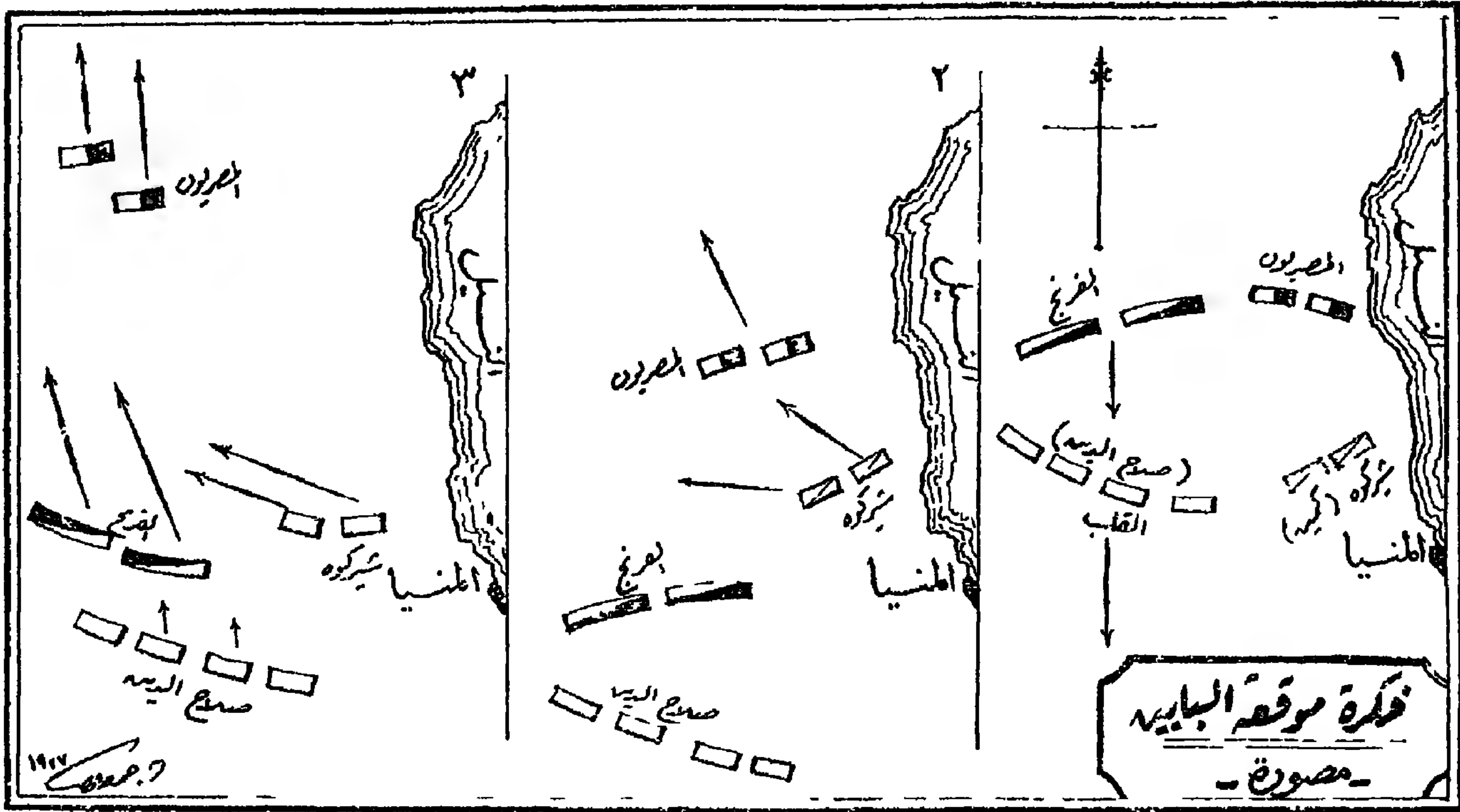
= الزاهية التى ليس مثلها فى بلاد الغرب ثم يريان هناك أنواعا من الحيوان لا مثيل لها إلا أن يصوّر ألوانها مصوّر بارع أو يخترع صورتها شاعر ماهر أو يحلم بها حالم فى عالم الخيال وهكذا كانا يريان أشياء لا يريان مثلها فى بلادهما إذ هى مما لا يوجد إلا فى بلاد الشرق والجنوب .

وبعد سير صويل فى تعاريج وتلافيف وصلا الى مكان العرش فأعلن قدومهما عدد عظيم من الحشم يلبسون حللا بهية ، ثم تقدّم الوزير خالعا سيفه وقبل الأرض ثلاث مرات كأنما يسجد لله ثم أعقب ذلك أن انكشفت الستائر الثقيلة فجأة وهى تلمع بما عليها من ذهب ولؤلؤ ، ولاح من خلفها الخليفة وعليه حلل وزينة تزرى بما يتحلى به الملوك .

فتقدّم اليه الوزير بخشوع الرسولين الفارسين وبين بصوت منخفض ما كانت فيه البلاد من الخطر وما كان من شأن صداقة ملك بيت المقدس له ، وكان الخليفة شابا أسمر اللون قد خطا الخطوات الأولى خارجا من عهد الصبا ، فقال انه يرغب أن يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولكنه تردّد فى أن يمدّ يده عند ما طلب الرسول منه أن يمدّ يده دليلا على صدق عهده وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب غير أن الخليفة مدّ يده بعد قليل الى السير هيو ، ولكن هـذا وجد عليها قفازا فقال : «مولاى ان الحق لا غطاء له وان كل شىء مكشوف فى عهود الأمراء» فتبسم الخليفة برغمه وخلع قفازه كارها ثم مدّ يده الى هيو وحلف اليمين على إنفاذ المعاهدة بصدق واخلاص .

ألايفعل . وبدأت الموقعة العظيمة فى ١٨ أبريل سنة ١١٦٧ م .
وكانت خطة شيركوه أن يجعل صلاح الدين فى القلب — فيظن أعداؤه أنه هو شيركوه الذى فى القلب حسب العادة المتبعة إذ كان القلب عادة يوضع تحت قيادة رئيس الجيش وتوقع شيركوه بذلك أن يكون القلب أوّل ما يتعرّض لهجوم العدوّ . وأما هو فقد اختار جماعة من أبطاله المجرّبين وجعل منهم الجناح الأيمن وأمر صلاح الدين اذا هو هوجم أن يتقهقر فى نظام ولا يثبت ثبوتا جدّيا حتى يغترّ الفرنج و يتبعوه — وهكذا كان ما توقع فان كتلة جيش مصر والفرنج صدمت القلب صدمة قوية فتقهقر صلاح الدين بنظام وثبات فتبعه الفرنج وعند ذلك هبط شيركوه بالجناح الأيمن على جيش المصريين فحطمه حتى اذا ماعاد الفرنج من تتبع القلب وجدوا حلفاءهم منهزمين . فاتبعوهم منهزمين كذلك — على أن شيركوه لم يتبع أعداءه ولعل ذلك راجع الى قلة عدد جيشه فآثر أن يذهب الى الاسكندرية وقد تمكن من أخذها بمساعدة أهلها وترك بها صلاح الدين بنصف الجيش وعاد هو الى الصعيد يجبى أموله .

وهناك فى الاسكندرية ظهر غناء صلاح الدين وتكشفت مواهبه فى الحرب وكيدها وبدا منه ذلك الثبات وذلك السلطان على النفوس وتلك القوّة التى ميزت خلقه فى حياته المقبلة .



صورة لموقعة البابين

عاد المصريون والفرنج بعد أن جمعوا أمرهم وأصلحوا ما أفسدته الهزيمة الى الاسكندرية فحاصروها من جهة البر على حين كان أسطول الصليبيين يهاجم المدينة من جهة البحر . وقد استمر الحصار نحو شهرين ونصف شهر ونفدت الأقوات ولم يكن بالناس من اطمئنان على تلك الحال من الحصار وكان صلاح الدين فى قلة من الجنود لا يستطيع غير أن يبث ما فى نفسه من ثبات فى قلوب من فى المدينة من تجار وصناع وعامة ، فكان حينا يعدهم بقدوم شيركوه بالزاد والثروة ، وحينا يخيفهم إيقاع الفرنج وقسوتهم ، وحينا يرغبهم فى الصبر والثبات فى سبيل نصر الدين على أعداء ملة محمد ، وكان فى الوقت نفسه ينفذ الرسل الى عمه يشكو اليه ما هو فيه من مشقة وعناء من أعدائه وأصحابه على السواء وأخيرا جاءت البشرى بقدوم أسد الدين من الصعيد الى القاهرة وحصاره لها . وعند ذلك رأى "امرى" أن النصر غير ممكن فاتفق مع شيركوه على أن تخلى الاسكندرية وأن يخرج الجيشان جميعا من مصر وأن يأخذ شيركوه كل ما استولى عليه من الأموال ويزيد عليه خمسين ألف دينار ، وهكذا انتهى دور الحرب الثانى على بقاء مصر خالصة لشاور . ولعله تبسم إذ ذاك وفرك يديه مهنئا نفسه عندما رأى نجاح لعبه بالقوتين العظيمتين قوة الصليبيين وقوة الأتراك وبقائه سالما بين

تنافسهما ، ولكن مثل هذا السلاح سلاح الخداع والحيلة قد يرتد على من يستعمله فيقتله ، ولا شك أن صلاح الدين حمل لشاور فى تلك المرّة كثيرا من الكره ممزوجا بالاحتقار إذ أدرك حقيقته .

لم يقم الفرنج بما تعهدوا به فأبقوا منهم حراسا على أبواب القاهرة وضربوا على مصر جزية نحو مائة ألف دينار كل عام وكانوا يطمعون فى أكثر من هذا أى أنهم كانوا لا يرضون بأقل من ملك مصر بعد أن عرفوا من ضعفها أكثر مما عرفه شيركوه .

وقد عادت جيوشهم بعد نحو عام من معاهدتهم لغزو مصر — وكان عزمهم هذه المرة عزم من لا يريد هوادة ، غير أن شاور أظهر من المقاومة ما لم يكن منتظرا منه فأحرق الفسطاط حتى لا تكون غنيمة لأعدائه الذين كانوا حلفاءه بالأمس ، ومنذ ذاك الوقت ذهبت أوّل عاصمة إسلامية لمصر ولم يرجع اليها بعد ذلك شىء من روائها القديم إذ ظلت النيران تأكلها أكثر من خمسين يوما .

وكان جماعة من المصريين الذين حول الخليفة العاضد والذين كانوا أعداء شاور يراسلون نور الدين لكى يأتى لمساعدة مصر على أعدائها ، وكان نور الدين يميل الى التدخل بطبيعة الأمر فما هو إلا أن أرسل اليه العاضد يستنجد به حتى أخذ يعدّ جيشا لغزو مصر وكانت الشروط التى وعد بها العاضد شروطا لا تبررها إلا الضرورة

القصوى التى كانت بها مصر فقد وعد نور الدين بثلث أرض مصر وإبقاء جيش احتلال مع شيركوه فيها وأن يقطع الجنود أرضا خارجة عن ثلث البلاد الموعود به لنور الدين .

أما شاور فانه لم ينس أن يلجأ الى الحيلة منذ رأى نفسه بين عدوين لا حظّ له مع أيهما ، فأحب أن يعمل على صرف الفرنج عن البلاد بالمال . فجعل يفاوضهم حتى اتفق معهم على ألف ألف دينار يعطيها لهم ليرحلوا عنه وعجل لهم منها مائة ألف ولكنه لم يستطع أن يحمل اليهم سائر المال .

وبينما هو كذلك إزاء أعدائه الفرنج كان نور الدين وشيركوه يسرعان فى الاستعداد حتى أتماه وسار جيش من ستة آلاف بينهم كثيرون من الأمراء النابهين وفيهم صلاح الدين الذى سار مع الجيش على كره بعد إلحاح عمه وتكرر طلب نور الدين ، ويظهر أن صلاح الدين كان غير راض عن الاشتراك فى غزو هذه المرة لما شهده فى الحرب الماضية من الشدّة لا سيما فى الاسكندرية . ولكنه على أى حال سار مع الجيش وكان الجميع فى مصر فى أوائل يناير سنة ١١٦٩ م ٥٦٤ هـ وكان "امرى" ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفا يستنجز شاور وعده فى المال المتفق عليه ، فلما أتى جيش نور الدين ورأى "امرى" موقفه الحرج وهو بين

شاور من جهة والجيش الاسلامى المغير من جهه أخرى لم يستطع البقاء فعاد الى الشام بغير أن يصطدم بالجيش القادم وبقى شيركوه وحده بمصر وكان الخليفة العاضد ظاهر الفرح به فأكرمه وخلع عليه، وأما شاور فلم يكن راضيا عن وجود ذلك الجيش القوى على كثب منه غير أنه بلع غيظه العظيم ولم يظهر شيئا منه خوفا وعجزا وجعل يماطل فى انفاذ الشروط التى اتفق عليها العاضد ونور الدين وجعل يظهر اللين لكى يخلص من عبء ذلك التعهد الثقيل، وكان يريد أن يستميل شيركوه بالملق والمداهنة بل لعله كان يفكر فى أن يوقع به لولا مقاومة ابنه لذلك الرأى .

رأى شيركوه مماطلته ويلوح أنه كان يميل الى التساهل قليلا ولكن كان هناك من يكره ذلك الرجل المخادع ويحتقره ويستشف الخيانة من وراء لين ظاهره — وذلك هو صلاح الدين . ففاتح عمه فى القبض على ذلك الثعبان فلم يرض شيركوه — فعزم هو على أن يأخذ الأمر فى يده . وفى ذات يوم خرج شاور على عادته الى معسكر الجيش التركى خارج القاهرة فلم يجد شيركوه وقيل له إنه خرج لزيارة قبر الامام الشافعى فرأى شاور أن يذهب اليه هناك وفى أثناء سيره قرب منه صلاح الدين ومعه عز الدين جورديك أحد أمراء الجند وقبضا عليه فأنزلاه الى الأرض وقيداه وانهزم

أصحابه عنه ووضع فى خيمة وحده — وما هو إلا أن بلغ نبأ القبض عليه لخليفته العاضد حتى أرسل يلح فى طلب رأسه — فأطيع أمر الخليفة وهكذا ذهب رجل كان يلعب بأمر مصر نيفا وست سنين وانتهى كل مكره الذى كان يدل به بدخول جيش نور الدين واستيلائه على البلاد .

وقد كان من الممكن أن نمر على هـذا الموقف مرورا سريعا فليس به ما يستحق أن نقف عنده لعبرة أو مناقشة ولكن حرصنا على اظهار حقيقة نفس صلاح الدين كما هى تجعلنا نسائل النفس هل هناك فى عمـله بشأن شاور ما يؤخذ عليـه . لقد قبض على الرجل وقيده حتى جاء أمر الخليفة العاضد بقتله . ولعله كان ذا يد فى انفاذ أمر العاضد — أو لعله على الأقل حبذ ذلك الأمر وسر له .

ألم يكن ذلك غدرا من صلاح الدين فى أوله وقسوة فى آخره؟ انا لا نستطيع أن ننسى شخص شاور اذا أردنا مناقشة هذا الرأى فقـد كان صلاح الدين يحمل فى نفسه عنـه رأيا سيئا منذ الحملتين الأولى والثانية ، اذ عرف لين ملمسه وخبث نيته وضعف نفسه الذى يغطى عليه بمكره . وقد انكشف له جشعه الذى كان يحاول اقناعه مضحيا بالدماء الغزيرة من أصحابه ومنافسيه على السواء . فهل عجيب مع ذلك أن يكره صلاح الدين مثل هذا الرجل ويسعى

فى تطهير مصر منه؟ أليس من الطبيعى أن تحزه تلك البسمات التى كان يراها على وجهه المخادع وهو يعلم ما انطوى تحتها؟ واذا هو رأى مماطلته ومداهنته أليس من المتوقع أن تثور نفسه الحرة الصريحة التى غذاها هواء الجبال والصحراء ولم تعرف إلا الحقيقة الجاهمة فى ميادين الموت التى كان يخوضها ؟ واذا هو سمع الاشاعات عن نية ذلك الرجل الغدر بعمه أسد الدين ، أما كان واجبه أن يتخذ الحيطة منه وهو من يعرف عنه الخبث والغدر؟ حقا لقد احتقر شيركوه أن يؤاخذ شاور بما يشاع عنه وتكبر أن يأبه بالخطر الذى كان يهدده من ناحيته فكان فى ذلك مثله مثل من يرى الحية تريد أن تنهشه فلا يرضى لها إلا عقب نعله يدفع به عن نفسه أمامها ، ولكن شجاعة شيركوه وكبره شىء وعدالة موقف صلاح الدين شىء آخر فقد أخذته الحفيظة فعزم على أن يوقف ذلك المرائى عند حده . فأسره مع جماعة من اخوانه ولكنه لم يقتله . فاذا كان قتله ذنبا فالذنب إذن على الخليفة العاضد الذى ألح فى قتله وأمر به غير مرة . على أن صلاح الدين لو قتله لما كان آثما ولا معتديا — فان شاور رجل قل أن تجد فى التاريخ من استحق القتل مثله . ولا من يكون قاتله أشد رضاء عن نفسه وأسلم من تأنيب الضمير والندم . فهو رجل أثار حربا من أجل الوزارة بمصر وبعد أن نصره جيش قتل

من قتل من رجاله وأبطاله رجع يغدر به ويستنصر عليه بعدوه . وقد كان من الممكن أن يرضى الانسان عن خطة شاور لو أنه اتخذ لنفسه جانبا وسار مخلصا فيه الى غايته ولكنه كان مثل اللاعب فوق الحبل يميل تارة ههنا وتارة ههنا يحاول أن يحفظ نفسه فوق مكانه الدقيق . فاذا نحن أردنا الحكم عليه وعلى خطته كان لا بد لنا أن نقر له بالمهارة فى الانتفاع بمن حوله ومقدرته على التقلب مع الظروف والأحوال ولكن ذلك كل ما يمكننا أن نقوله معه فقد كان مثلا للسوء فى تعامله وتعهده ونيته . ولقد كان صلاح الدين باشتراكه فى أسره آلة من آلات العدالة الالهية .

وقد اختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور أسد الدين شيركوه ليكون وزيرا محله وبالغ فى اكرامه وخلع عليه وسماه الملك المنصور وجعله قائد قوده وأمير جيوشه غير أن الأجل لم يمهله ليتمتع بفقاعة مجد الدنيا أكثر من شهرين وخمسة أيام وقد كان جديرا بمصر وملكها لأنه فى الواقع أكبر من دفع على غزوها واليه أكبر الفضل فى فتحها . وقد قيل مات من الخناق من وراء تخمة اذ كان كثير الأكل وهو أقرب الآراء الى التصديق وقيل مات من حلة مسمومة — وما أحرانا أن نلحق ذلك القول الأخير بأمثاله فى أقاصيص الشرق . فما زال الخيال الشرقى ميالا الى أن يحيط أبطاله بالأسرار والخفايا .

وعند موت شيركوه كان فى الجيش جماعة من كبار الأمراء وكان المتوقع أن يختار أحدهم وزيرا بعد شيركوه فما كان من الممكن أن يتجاهل الخليفة العاضد وجود ذلك الجيش المحتل فى بلاده . وكانت المظاهر كلها تدل على أن خليفة مصر ورجاله يحبون الابقاء على مساعدة جيش نور الدين خوفا من تدخل الصليبيين فقد كانوا يرون أنه اذا كان لا بد من احتلال أجنبي فليكن ذلك الجيش من المسلمين . ولهذا كان المنتظر أن يختار العاضد وزيرا له من كبار أمراء الجيش النورى ولكن حدث ما لم يكن منتظرا فان السياسة المصرية إذ ذاك كانت لا تنسى أن تلجأ الى الدهاء فى مقابلة المصاعب الكثيرة التى كانت غير قادرة على حلها فى ميدان الصراحة والقوة ، ولهذا عمد الخليفة العاضد الى حيلة يحسبها تضمن له مساعدة جيش نور الدين مع أمن شره واتقاء استبداده بجرى على عادة المصريين فى تفضيل الأصاغر لكى يكونوا أسهل قيادا . فتخطى الأمراء الكبار فى الجيش واختار للوزارة ذلك الشاب الذى كان مظنة اللين والسهولة وهو صلاح الدين فقد رأى الخليفة فيه ماظنه ضعفا واستكانة لما كان عليه من الحياء والاعتزال وقلة التظاهر ولو كان الخليفة ورجاله أنفذ نظرا وأعمق فكرا لعرفوا أن تلك المظاهر انما تخفى نفسا كبيرة توافة اذ أنه لم يكن سوى ذلك الجندى

الشجاع الذى أبلى بلاءه فى موقعة البابين وذلك القائد القادر الذى دافع عن الاسكندرية دفاعه المجيد مع حداثة سنه وشدّة الظروف التى حوله على أن الأمور جرت بقدر وكان خطأ الخليفة العاضد ورجاله من حسن حظ مصر والاسلام فأصبح صلاح الدين وزيرا لمصر وأميرا لجيوشها .

٣ — وزارة صلاح الدين

لم تكن بصلاح الدين رغبة فى الوزارة فقد كان يرى حرج موقفه فيها ويعلم أنه لابد يلقى فيها متاعب ومصاعب فدونه أمور سياسة الدولة وأى دولة ؟ انها مصر التى يتطاحن عليها جماعة من المستوزرين من الداخل يريدون السلطة ، وجماعة من الصليبيين من الخارج لايدعونها سالمة . وكان كذلك يستشف كراهة الأمراء الكبار لتوليته ، ولم تكن نفسه من تلك النفوس الخشعة التى اذا لوح لها بالمجد طارت اليه طائشة بل لعله كان يرى من نفسه غنى عن ذلك المجد بما يشعر به فى نفسه من عظمة .

ولهذا نعلم أنه تردّد كثيرا حتى رضى بعد لأى أن يكون عند اختيار الخليفة فذهب الى القصر وخلعت عليه خلعة الوزارة « من جبة وعمامة وغيرهما » ولقب بالملك الناصر .

ولسنا نجد غرابة فى أنه قبل الوزارة بعد امتناع فانه فكر فى نفسه وفى من حوله فلم يشعر بما يجعله يظن فى غيره قوة ليست عنده ورأى أمورا معوجة طمع أن يكون له فضل اصلاحها ولعل آمالا أشرقت فى نفسه عند مارأى صغر نفوس رجال الدولة التى أمامه فأقدم وهو يشعر بثقل الأمانة وصعوبة المرتقى .

كان اختياره مغضبا لكبار الأمراء كما توقع فلم يأبهوا به واعتزلوه حتى سعى بينه وبينهم رجل من رجال الدين والسيف معا وهو البطل الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى فأقنعهم بأن يظلوا على الولاء له حتى قبلوا جميعا إلا جماعة أكبرهم عين الدولة الياروقى فانه خالف وعاد مع جماعته الى الشام وبقى صلاح الدين بمصر ليقابل أمورها واحدا فواحدا ولسنا نسمع بعد ذلك عن خلاف بينه وبين الأمراء الذين رضوا بالخضوع له فلم يظن أحد منهم أنه خضع لغير شريف ، أو أذل فى ذلك الخضوع ، وقد رضى نور الدين عن ذلك الاختيار وفرح به وصار يرسل اليه فى مخاطباته (الى الأمير الأسفهسلار) وذلك لقب معناه (الأمير الحاكم) كان يطلق فى ذلك الوقت على كبار القواد .

ولكن اذا كان صلاح الدين قد أمن جانب من معه من الأمراء فانه لم يأمن جانب الياروقى ومن معه فى الشام وهم يرقبون منافسهم الفتى عن بعد .

غير صلاح الدين من نفسه بعد أن صارت له الوزارة فامتنع عن اللهو والخمر واستشعر الجدّ فى كل أعماله وأخذ جوهره يظهر صافيا خالصا وكان من أكبر الصفات التى ظهرت فيه كرمه فى البذل لمن معه وتعففه عن أن ينال لنفسه شيئا .

ولعله شعر أنه محتاج الى أمناء أوفياء لايداخله شك فى أمرهم فرسل يطلب من نور الدين أن يبعث اليه أباه وأخوته فأرسلهم اليه بعد أن استوثق منهم أن يطيعوه ولم يدر نور الدين أن ذلك الفتى الناشئ لم يكن فى حاجة الى ذلك الاستيثاق فقد كان له من عظمة نفسه ما يجعل من معه يخضع له راضيا وهكذا كان فلم تمض على وزارته سنة وأشهر حتى كان كل من معه من الأمراء والأهل خاضعا محبا لسيادته فى آن واحد .

ولعله من المفيد أن تقول أن سنه وقت أن تولى الوزارة لم تكن بأزيد من واحد وثلاثين عاما .

وكانت الأمور التى شغلته منذ تولى الحكم بعضها فى الداخل وبعضها من الخارج وكان الداخل أول ما استوجب منه العمل وذلك أنه بعد وزارته بأربعة شهور شعر رجال القصر أنهم بإزاء رجل ذى بأس وليس كما ظنوه ضعيفا فأخذوا يدسون له وكان رئيسهم خصيا أسود (مؤتمن الدولة) فبدءوا يراسلون الفرنج سائرين

على سنة شاور، فعلم صلاح الدين بالأمر وكتمه حتى رأى فرصة فى مؤتمن الدولة فقبض عليـه وقتله فتعصب له الجنـد السودان حراس القصر وثاروا بصلاح الدين ولكنه كان مستعدا فأوقع بهم بين القصرين ولم ينج منهم إلا القليل الشريد ومنذ ذلك الحين جعل على القصر خصيا أبيض من رجاله وهو بهاء الدين (قراقوش) .

لم يمض زمن طويل بعد تلك الثورة حتى واجهته أخطار من وراء البحر فجاءت أساطيل الدولة الرومانية الشرقية والفرنج لحصار دمياط فى عدّة كبيرة اذ بلغت سفنهم نيفا ومائتين ولعلهم حسبوا ان خلو مصر من شيركوه يجعلها سهلة الفتح فأظهر صلاح الدين أنه يقدر على كثير فى غير جابة فأرسل العسكر والذخيرة الى دمياط بالنيل ومكنها بذلك من مقاومة هجمات المغيرين العنيفة وأرسل فى الوقت عينه الى نور الدين يذكر له الحال ويطلب منه المعونة ثم لم يتوان فى الأمر فذهب فى جيش الى دميـاط ليشغل المحاصرين عن فتح المدينة . وقد أسعفه نور الدين كعادته اذا جدّ الجدّ فأرسل اليـه البعوث ارسالا يتلو بعضها بعضا ثم أهوى هو فى الشـام الى بلاد الفرنج فنهب فيهـا وخرب فاضطر المهاجمون الصليبيون أن يرفعوا حصار دمياط ويعودوا الى الشام ليحموه من هجمات نور الدين بعد خمسين يوما من الحصـار، وكانت سياسة صلاح الدين الداخلية

عاملا من عوامل الاطمئنان والوفاق فى مصر حتى أن الخليفة العاضد لم يضق به كما كان يضيق بمن سبقه من الوزراء ولم يفرح بهجوم الصليبيين هذه المرة ولم يستعن بهم بل أرسل الى صلاح الدين كثيرا من المال والذخيرة حتى لقد قدّر صلاح الدين نفسه ما أرسله العاضد اليه بمقدار مليون من الدنانير المصرية . نذكر ذلك تشريفا لآخر خلفاء الفاطميين فى مصر .

٤ — انقراض الدولة العلوية الفاطمية بمصر

بقيت الدولة الفاطمية بمصر نحو قرنين وهى تحاول بسط سلطانها على ما جاورها من البلاد وكان امتداد ملكها انقاصا من سلطان دولة العباسيين .

وظلت الدولتان متنافستين تعلو كفة العباسية مرة وكفة الفاطمية مرة الى أن جاءت لدولة السلجوقية كما سبق القول وكانت الدولة الفاطمية قد اضمحل أمرها منذ أن مضى أوائلها العظام .

على أننا لا نستطيع أن نعرف على وجه البت هل كان لوجود هذه الدولة العلوية فى مصر قرنين أثر فى عقائد أهلها . فان كل الظواهر تدل على أنه لم تكن هناك رسوم دينية خاصة تخالف أساس ما اعتاد أهل السنة فى عباداتهم ومعاملاتهم . فانه ان كان

ثمة شيء من ذلك فهو شيء من الزخرف والزينـة والأبهة فى رسوم الدين ولم يكن على ما يظهر اختـلاف فى أساس العقيدة فلم يكن خلفاء دولة الفاطميين من غلاة الشـيعة ولم تكن لهم تلك العقائد الغريبة السرية التى تميز الشـيعة فى الأقاليم الأخرى . أما الزخرف الذى ذكرناه فى رسوم الدين بمصر فلم ينكره أحد وقديما كانت مصر تميل الى الزخارف فى رسوم الدين وليس بأس من ذلك مادام لايمس العقيدة . ولعـل طبيعة أرض مصر الوادعة وطبيعة أهلها الميالين الى المرح والبسطة والسهولة الذين يقدّرون الجمال ويحبونه — لعل كل ذلك حبب الى نفوسهـم ما كان للدولة من تكلف فى الدين وأبهة وزينة فى الحفـلات . وأما العبـادات والمعاملات بحسب القانون الدينى فاننا لانجد مايدل على أن دولة الفاطميين قد أحدثت فيهما تغييرا يذكر .

ولم يكن بالمصريين كره للدولة الفاطميـة على أنه لم يكن بهم كذلك ميل الى التضحية بشىء فى سبيلها كما هى عادة الدولة اذا كان حكمها فى يد طائفة معينة دون جمهور الشعب . وكان الشعب المصرى يرى فى كثير من الأحيان لا سيما فى الأيام الأخيرة ظلمـا وضعفا من جانب الدولة ولكنه كان دائمـا يميز بين الوزارة صاحبة القوّة فيحقد عليهـا وبين الخلافة صاحبة الأمر الأعلى ويعلم انهـا

لا حول لها ولا قوة ولهذا كان يعطف عليها فعندما أبصر الشعب صلاح الدين على الوزارة ورأى كرمه فى البذل وتصرفه فى الدفاع وقوته فى الحرب أعجب به وأحبه والتف حوله . وكان صلاح الدين منذ أخذ الوزارة فى يده يسعى لتوطيد أمره بأن يجعل الشعب يثق به ويلتف حوله . ولكنه آثر ألا يصدمه بتغيير فجائى فبدأ ينشىء المدارس السنية على مذهب الامام الشافعى وعارض سيده نور الدين فى أمر القضاء على الحكم الشيعى من أول الأمر إذ كان نور الدين يحب أن يبدأ بازالة الخلافة الفاطمية عند أول دخول جيشه مصر فراجعه صلاح الدين مظهرا ما قد ينتج عن مثل هذ الانقلاب الفجائى .

إلا أن إلحاح نور الدين فى قطع الخطبة العلوية بمصر جعله يفكر كيف يعمل فاستشار أصحابه فانقسموا فى الرأى بين محبذ ومنكر و تفق بعد ذلك أن مرض العاضد واحتجب فى قصره فرأى الوزير الفرصة ممكنة بجرب قطع الخطبة من أحد المساجد وقام بالخطبة للخليفة العباسى رجل أعجمى يعرف (بالأمير العالم) فلم يحدث استنكار من جانب الناس فأمر صلاح الدين الخطباء جميعا أن يقطعوا خطبة العاضد ففعلوا وتم الانقلاب بدون حدوث شىء . وقد أول جماعة تردد صلاح الدين بأنه كان يرغب فى بقاء الخطبة

للعاضد خوفا من نور الدين . ولا حاجة بنا الى الوقوف هنا لرد هذا الزعم إذ لا نجد حجة هذه الجماعة جديرة بالتفنيد . فان الحكمة السياسية وحدها كانت تقضي عليه بسلوك ما سلك من طريق التريث .

أرسلت البشائر الى نور الدين و بغداد وازينت عاصمة الخلافة العباسية وأرسلت الخلع من الخليفة العباسى الى نور الدين وصلاح الدين وأصبح فى الشرق كله خليفة واحد من بنى العباس لا ينازعه أحد ينتمى الى ذلك البيت الجليل بيت بنى هاشم .

وقد حدث أن العاضد فى أثناء مرضه أرسل يستدعى صلاح الدين فخاف صلاح الدين أن يلبى وظنها خدعة ومؤامرة على عادة المصريين . ولكنه عرف فيما بعد أن العاضد كان مخلصا فى طلبه فندم على ذلك إذ كان لا يرى من ذلك الشاب الخليفة إلا كل ما يرضيه من حب ومساعدة وإخلاص . وقد كان من حسن حظ العاضد أنه لم يعرف ما حدث من الانقلاب فقد توفى من مرضه فى سبتمبر سنة ١١٧١م — ٥٦٧ هـ . ولم يعلمه أحد بأن الخلافة نزعت عنه بعد أن لبثت أكثر من قرنين ونصف قرن فى بيته منذ كان فى شمال أفريقية قبل هبوطه مصر .

وهنا فلنسكت عما كان فى قصر الخليفة من تحف ثمينة وآثار قيمة وكتب نفيسة وآلاف العبيد والإماء والثروة الطائلة . ولنكتف

بأن نقول أن صلاح الدين لم يرزأ من كل ذلك شيئا لنفسه بل ذهب كله لرجال الجيش والأمراء الذين معه حتى القصر نفسه وبقى الوزير العظيم مقيما حيث كان فى خشونة من العيش وسذاجة من الحياة تقرب من حياة الزاهد .

٥ — الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين

نحن مضطرون أن نقف قليلا نناقش تهمة يوجهها كثير من المؤرخين الى صلاح الدين وهى انه منذ شعر بثبات مكانه بمصر أثار وحشة بينه وبين سيده وعزم على الخروج عليه ومحاربته اذا دعا الأمر . وما كان للانسان أن يتهم حتى يكون عنده الدليل القاطع . واتهام صلاح الدين بالخروج على نور الدين وإثارة الوحشة بينه وبين سيده الذى يجله والذى كان له عليه فضل التربية والعناية والتشجيع . اتهام خطير يجب على من يسوقه أن يكون من أشد الناس احتراسا فى قوله ولهذا نؤثر أن نذكر تهم المؤرخين ثم نرى مقدار قوتها على ضوء المنطق ودلالة التاريخ وهذه هى التهم التى تساق :

(١) بعد القضاء على الدولة الفاطمية سار صلاح الدين سنة ١١٧١ م — ٥٦٧ هـ . راغبا فى حرب الفرنج فحاصر حصن الشوبك بفلسطين على مسيرة يوم من الكرك فعلم نور الدين بذلك،

الحرب فرغب فى مساعدة صلاح الدين فسار من دمشق نحوه وكان صلاح الدين قد أوشك أن يأخذ الحصن من الفرنج فلما علم بمسير نور الدين تركه ورجع الى مصر وكتب الى نور الدين يعتـذر له باختلال الأمور فى مصر فلم يقبل نور الدين ذلك الاعتـذار وعزم على المسير الى مصر وإخراج ذلك المتمرد عنها . فجمع صلاح الدين أهله وفيهم أبوه وخاله ومعهم سائر الأمراء واستشارهم فقال قائل نمتنع عليه ونحاربه . فقام نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين وقال قولا معناه أنه لا يوافق وأنه أول من يطيع نور الدين ويعصى ابنه اذا خرج عليـه . وانفض المجلس على نصيحة أيوب أن يرسـل صـلاح الدين الى نور الدين يستـميله ويطلب عفوه ويذعن له ويظهر الخضوع ثم لمـا خلا أيوب بابنـه قال له « ما كان ينبغى أن تصنع ما صنعت فان الأخبار لاشك تبلغ نور الدين » ثم قال له « ألا فاعلم أننا لانسلم البلاد له ولو أراد قصبة من قصب السـكر لحاربناه عليها » .

(٢) بناء على المفاوضة بين صـلاح الدين ونور الدين استقر الأمر أخيرا على أن يقصد الاثنان حصن الكرك ويحاربا هناك معا فلمـا كانت السنة التالية (أوائل سنة ١١٧٣) ذهب صلاح الدين وحصر الحصن فلمـا بلغه مجىء نور الدين رجع ورفع الحصار عنه

وعاد الى مصر وأرسل الفقيه عيسى الهكارى يعتذر لنور الدين بأنه ترك أباه على مصر فمرض وأنه يخشى أن يموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل مع الفقيه من الهدايا والتحف مايجل عن الوصف. فلم يقتنع نور الدين بذلك الاعتذار واستوحش باطنا ولكنه لم يظهر شيئا من تأثره .

(٣) ما بين غزوة الشوبك سنة ١١٧١م — ٥٦٧ هـ. وغزوة الكرك فى أوائل سنة ١١٧٣م — ٥٦٩ هـ . قد أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر شمس الدولة توران شاه ليفتح النوبة لكى تكون لهم موئلا يلجأون اليـه اذا أجلاهم نور الدين عن مصر . ولكن تلك الحملة لم تنجح لأنها وجدت البلاد صحراء لا تغنى .

(٤) بعد غزوة الكرك فى سنة ١١٧٣م — ٥٦٩ هـ. لمـا رأى صلاح الدين أن النوبة لاتغنى أحب فتح ملجأ آخر فأرسل يستأذن نور الدين فى فتح اليمن « فاذن له نور الدين » فذهب أخوه شمس الدين توران شاه اليها وفتحها ونظم أحوالها وأصلح شـؤونها واستقام أمر الأيوبيين بها نحو خمسين سنة .

هكذا يصور كثير من المؤرخين موقف صـلاح الدين بازاء سيده وحقا ان فى الحوادث التى يذكرونها كثيرا من الحقيقة ولكن تأويلهم فى ظننا تاويل لا تبرره الظروف ولا يقبله العقل وما كان.

لنا أن نكذب تأويلهم لولا أننا نرى أن الأدلة كلها تشير الى أن ذلك التأويل صادر عن الخيال لا عن الحقيقة . فهناك الأدلة المادية التي تظهر تأويلا غير هذا وهناك ما نعلمه من صلاح الدين وخلقه ما ينفى أن الأمر الواقع كان كذلك .

هنا أمر يستوقف النظر وهو أن المؤرخين الذين يذكرون تلك الأمور يتفقون فى إيرادها وفى كثير من الأحيان تتفق ألفاظهم مع اختلاف فى الايجاز والاطناب وهذا ما يجعلنا نظن أن مصدر القصة واحد أخذ عنه الجميع ولا يبعد أن يكون ذلك المصدر من جانب الشام أو جانب من كان مع نور الدين من الأمراء الحاقدين على صلاح الدين أمثال الياروقى . أما نحن فنرى لكل تلك الحوادث تفسيرا آخر نعتقد أنه أكثر اتفاقا مع الأحوال والأشخاص .

(١) فرجوع صلاح الدين عن الشوبك سنة ١١٧١ م وعن الكرك سنة ١١٧٣ م كان أمرا طبيعيا ولولا تلك القصة التي يذكرونها عن اجتماعاته بأمرائه وما يعزونه اليهم من الأقوال لما كان هناك ما يستغرب فى عمل صلاح الدين . فالشوبك والكرك حصنان من أمنع الحصون فى فلسطين وكان فتحهما من أكبر الفتوح التى تغنى بها الاسلام فيما بعد بعد جهود عظيمة ومحاولات متكررة أخفقت مرارا وكان يحميهما جماعة من المحاربين المستبسلين الذين يقاومون

حتى لايكون دونهم مايقاومون به من مال أو دم وكان صلاح الدين في سنة ١١٧١ م خارجا من إحداث انقلاب بمصر وازالة دولة لها في البلاد أصل ثابت من قرنين وكان لها أتباع وأنصار يفكرون في الدفاع وإرجاع الأمر الى ما كان عليه ولا سيما أنه كان إذ ذاك حديث عهد بثورة السودانيين ولا يأمن أن يترك مصر إلا قليلا ففي سنة ١١٧١ م عندما حصر الشوبك رأى أن الحصن لن يسلم إلا بعد أمد قد يطول وأن نور الدين قد يشترك في الحروب فيجعلها واسعة الدائرة فينتقل من ميدان الى آخر وهو الرجل الذي يحب الجهاد ويجعل حياته له ، فآثر الرجوع وأرجأ فتح ذلك الحصن الى وقت آخر ولو كان يخشى الاقتراب من نور الدين فما كان الذي دعاه أن يفكر مبتدئا في غزو فلسطين ؟ أما كان يؤثر من أول الأمر إبقاء الصليبيين بينه و بين من يخافه ؟

(٢) وأما في سنة ١١٧٣م فقد كان صلاح الدين يشم خطرا في الجو لا تفوته حركة من حركات صديقه وعدوه على السواء — فلما دعاه نور الدين الى حصار الكرك لم يستطع أن يمتنع حتى لا يسيء سيده به الظن فذهب الى هناك في شوّال وكان هو السابق وظل على الحصار وحده مدّة شهرين ثم أقبل نور الدين بعد ذلك متأخرا في ذي الحجة .

ورأى صلاح الدين أثناء ذلك امتناع الحصن عليه، ولعل نور الدين لو كان اشترك معه من أوّل الأمر لكان الحصن قد سلم أو لكان على الأقل هناك تساو فى المجهود يبعث نور الدين على الاكتفاء وترك الحرب الى حين فتأخر نور الدين كان معناه أن غياب صلاح الدين عن مصر سيستمر الى مدّة أطول ولا سيما وأن جيش نور الدين كان لايزال جديد الهمة وهو يعرف أن نور الدين اذا بدأ الحرب فلن ينتهى منه إلا بعد أن يبلى بلاء ويعذر ولعله ينتقل من ميدان الى آخر ولن يستطيع صلاح الدين أن يترك الحرب اذا هو بدأ فيه الى جانبه لئلا يكون ذلك تخذيلا . فآثر أن يتبع من أوّل الأمر ما تمليه الرجولة ويوجبه الحذر فأرسل فى أدب معتذرا وأظهر خضوعه بما أرسل من هدايا وأنفذ رسوله رجلا يعرف ما كان عليه من صفات ولا يطعن أحد فى إخلاصه وهو الفقيه عيسى الهكارى وكان رجلا شجاعا دينا فلو وجد شيئا على صلاح الدين من الخيانة لسيده لكان يفضى بذلك الى نور الدين إذ كان يعتقد أنه المجاهد فى سبيل الله المخلص فى غزواته القائم فى عبادته الزاهد فى دنياه . ولم يكن نور الدين فى قلوب الناس ولاسيما الفقهاء بأقل مما كان صلاح الدين بل ان الناس جميعا كانوا أميل فى الخضوع له واتباعه مما كانوا يميلون الى الفتى الناشئ .

ولكن الفقيه لم يذكر إلا كل خير ولم نسمع عن نور الدين أنه قال إلا جوابا مرضيا .

ولكن كان حول نور الدين جماعة من أمثال الياروقى الذين كانوا يرون صلاح الدين قد سلبهم ملك مصر ولا بد أن هؤلاء كانوا يحاولون مااستطاعوا أن يظهروا لنور الدين سوء نية منافسهم لعله يحقد عليه ويخلعه فيكون ذلك انتقاما لهم منه . فجعلو يفسرون حركات صلاح الدين بما شاءت لهم نفوسهم المغضبة .

ولا يبعد أبدا بل نرى أن تفسير حركات صلاح الدين بعدم رغبته فى مقابلة نور الدين من وحى هؤلاء واشاعاتهم .

أما قصة المجلس الذى جمعه صلاح الدين بعد رجوعه عن الشوبك فانها تشبه القصص التى نسمعها فى المؤلفات الخيالية حتى أنها لتورد الألفاظ التى قالها أيوب لابنه فى خلوة وهو ينصحه ألا يقول شيئا فى العلن إلا الخضوع لنور الدين ويؤكد له فى نفس الوقت أنه لو أراد نور الدين قصبة من مصر لحاربه عليها . وأن نجم الدين الحريص ليكون ممن ينصح بشيء ويخالفه ويعلم وهو محتاج الى التعلم لو كان أسمع أحدا ما قاله لابنه إذ ذاك فى خلوته . وإلا أفليس من المضحك أن يعرف مؤرخ ما قاله نجم الدين لابنه فى خلوة ولا يعرف ذلك نور الدين نفسه .

على أن هناك ما يفيد أن سيرة ذلك المجلس وما وقع فيه لم تكن إلا خيالا فان ابن شدّاد وهو القاضى بهاء الدين مؤلف سيرة صلاح الدين وصاحبه فى مسيره وحروبه لم يذكر شيئا عن ذلك المجلس ولم يذكر والد صلاح الدين ولا نصيحته ولكنه نقل الينا وهو مصدق فيما يقول سمعته — قال سمعت صلاح الدين نفسه يقول "كان بلغنا أن نور الدين يقصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلق عسكره بمصاف نردّه اذا تحقق قصده وكنت وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك" .

فالحقيقة هى اذا أن نور الدين تغير على صلاح الدين وأساء الظن به لأنه حمل على أن يؤول حركاته وأعماله بغير ما قصده — وعزم على السير اليه وصلاح الدين صابر لا ينوى مقاومة ولا يظهر إلا الخضوع ولا يبطن إلا الإخلاص .

(٣) و (٤) وأبلغ من كل ذلك ذكر فتح النوبة والقول أن ذلك كان مقصودا به فتح أرض تكون ملجأ من نور الدين ، والواقع أن تلك الحملة لم تكن إلا لتطهير جنوب مصر من بقايا الحرس السودانى الذى كان لا يزال منه بقية ثائرة بالصعيد حتى تكون مصر كلها مطمئنة له من البحر الى أقصى حدودها الجنوبية.

وأما فتح اليمن فمن الغريب أن يستأذن صلاح الدين نور الدين لو كان عنده نية المخالفة ومن الغريب أن نور الدين يأذن له بارسال الجيش الى هناك لو كان حقيقة يعتقد أن ذلك الرجل يخون .

فالواقع الذى نراه هو أن سوء ظن نور الدين لم يبدأ منذ سنة ١١٧١ م بل انه قد بدأ يتجسم له من بعد موقعة الكرك وبعد السماح بحملة اليمن سنة ١١٧٣ م وأن ذلك الظن لم يتجسم إلا من سعى أعداء صلاح الدين ومنافسيه وأن صلاح الدين ظل الى نهاية الأمر لا يتأثر بما يشاع عن تغير نور الدين عليه . وأما أبوه نجم الدين رحمه الله فلم يكن له من أمر ذلك المجلس المزعوم شىء بل نعتقد أنه عندما مات بمصر أثناء المدّة التى كان فيها صلاح الدين عند الكرك أو عائدا منها سنة ١١٧٣ م كان لا يفكر تفكيرا جدّيا فى أن هناك سوء ظن بين ابنه وبين سيده .

٦ — ثورة المصريين

لعل صلاح الدين لم يكن فى حياته كلها فى خطر أعظم مما كان فيه فى سنة ١١٧٣ م (٥٦٩ هـ) وسنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) فان عوامل كثيرة اجتمعت على عداوته ولما لم تجد فرصة تمكنها منه علنا فى ميادين النضال عمدت الى الدسائس والمؤامرات فكان

فى مصر حزب موال للشيعة العلوية أصحاب الخلافة المنقرضة، كان فى جيش صلاح الدين جماعة من الجند لم ينالوا ما يرضيهم فكرهوا حكمه، وكان بقية من الجند السودانيين الذين يكرهون صلاح الدين لا يزالون بمصر، وكان هناك الفرنج وقد رأوا بلاءه فيهم عند دمياط، وكذلك كان هناك الاسماعيلية الفدائيون الذين كانوا يميلون الى الفتك بمن قضى على دولة علوية مذهبها الدينى مثل مذهبهم . وكان صلاح الدين صاحب ذكاء متوقد وحذر لا تفوته فائتة فأدرك أن بالجو أمورا تنذر بالخطر ولهذا لم يأمن أن يبقى خارج مصر طويلا فرأيناه يعود من الكرك سنة ١١٧٣ م قبل أن يتم فتحها ولم ينتظر لكى يشترك فى الحرب مع نور الدين كما مر. وقد حسب أعداؤه أن الفرصة سانحة لبعد جزء كبير من الجيش فى حرب اليمن (سنة ١١٧٣ م — ١١٧٤ م) فأحكموا أمرهم ودبروا الوثوب به . ولا يسعنا إلا أن نبصر ما ارتكبه صلاح الدين من الخطأ بتسيير حملة اليمن فى ذلك الوقت مع توقعه الخطر — ولا نجد مبررا لانفاذ تلك الحملة الى ذلك القطر البعيد إلا رغبته فى أن يملك طرف البحر الأحمر من الجنوب كما ملك ثغر أيلة على رأسه من الشمال ليمنع الخطر الذى كان فى ذلك الوقت يهدد البلاد المقدسة من ناحية المسيحيين ، اذ كانوا يفكرون فى حشد أساطيل عظيمة

فى ذلك البحر لغرض الاغارة على الحجاز وقبر النبى . ولكن لحسن حظه علم بأمر المؤامرة قبل أن تنفذ خطتهم المحكمة وذلك بسعى زين الدين على بن نجا الواعظ، فقبض على رؤساء المتآمرين فصلبهم بعد أن حاكمهم وأقروا وبذلك قضى على النار قبل أن تشب . ولكنه اذ كان قد قضى على رأس الحية فقد خلف ذنبها، وسيجد فيما بعد صعوبة فى تحطيم ذلك الذنب كما سيأتى .

وكان أكبر من صلبهم من رؤساء المؤامرة عمارة اليمنى الشاعر وهو الذى حسن الى شمس الدولة أخى صلاح الدين فتح اليمن وكان يباهى بأنه هو الذى أفسح السبيل للتآمرين بأن حمل شمس الدولة على الاقدام على حملة اليمن وبذلك أبعد جزءا كبيرا من الجيش عن مصر . وكان لعمارة أشعار فى الفاطميين منها :

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة ان أقصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى ... عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهليهما والله لا التحمت ... فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل

وقد أظهر صلاح الدين كعادته حكمة عظيمة فى أنواع العقاب فانه بعد أن صلب القادة الكبار اكتفى بأن نفى من اشترك فى المؤامرة من أجناد المصريين الى أقاصى الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة الفاطميين — وأما الذين نافقوا عليه من جنده فلم يتعرض .

لهم ولم يعلمهم أنه علم باشتراكهم وآثر أن يستميلهم بازالة ما يشكون منه وحدث ذلك كله فى أبريل سنة ١١٧٤م (رمضان سنة ٥٦٩هـ).

ولكن الفرنج لم يعلموا أن المؤامرة قد كشفت وقضى عليها . ولهذا جاءوا من البحر الى الاسكندرية فى يوليو سنة ١١٧٤ م (ذى الحجة سنة ٥٦٩هـ) يحسبون أنهم سيضربون جبهة صلاح الدين يصدعونها على حين يخرج أحلافهم الخونة من خلفه فيجهزون عليه . ولكن خاب ما أملوا .

٧ — وفاة نور الدين

بعد القضاء على تلك المؤامرة بنحو شهر ونصف أتى الى صلاح الدين نعى نور الدين العظيم وانا لا نستطيع إلا أن نذكر بالاعجاب ذلك البطل (نور الدين) الذى جعل كل حياته وقفا على الدفاع أمام قوم أغاروا على بلاد ليستغلوها وأتوا ما أتوا من المظالم فى شعب يرى نفسه حاميا له وملزما بالدفاع عنه . وقد كانت حياته سلسلة حروب لا بأس من أن نسميها جهادا . وقد كان نجاحه فيما قصد اليه نجاحا كبيرا فكوّن دولة عظيمة وردّ تيار الانتصار نهائيا من جانب الصليبيين فأصبح فى جانب دولة الاسلام وكان يدعى له على منابر مصر والشام الى الموصل واليمن . على أن

دولته كانت على النظام الاقطاعى يحكم كل إقليم منها حاكم شبه مستقل يدين له بالدعوة ويرسل اليه العسكر والمال كلما لزم له حرب . وكان نور الدين فى خلقه مثلا من الأمثلة العليا فى الزهد فى غير مرارة، والتدين فى غير تعصب ، والعدالة فى غير تشدد . وكان هو نفسه فى مقدمة المحاربين لا يتأخر بل يحارب بنفسه غير خائف أن يصاب ولا يطيع من ينصحه بالاحتراس ولا أدل على روحه من أن نورد ما قاله مرة وقد نصحه ناصح أن يدع الحرب خوف أن يصاب فيكون فى إصابته هلاك المسلمين فقال « ومن محمود حتى يقال له هذا؟ ان من قبلى من حفظ البلاد والاسلام وذلك هو الله» .

ولا ندرى كيف كان وقع نبأ موته على صلاح الدين وأكبر ظننا أنه أساءه أيما اساءة وأحزنه أعظم حزن(١) على أننا لا نقدر أن نتناسى أن موته أخرج صلاح الدين من خطر عظيم ، وذلك أن الخلاف الذى دب بينه وبينه بعد سنة ١١٧٣ م كان لابد يصل الى حد بعيد لو بقى نور الدين حيا . ومن يدرى هل كان صلاح الدين يحتفظ الى آخر الأمر بما سار عليه الى ذلك الوقت من الحفاظ والاعتدال ؟

(١) ظل صلاح الدين يذكر مولاه نور الدين بكل حسنة الى آخر حياته وتدل جميع أقواله بعد أن صار السلطان الأعظم فى العالم الاسلامى على أنه مازال يحن الى ذكرى سيده ويقدس فيه البطل الزاهد العادل .

٨ — بدء العصر الثانى من حياة صلاح الدين

بعـد أن مات نور الدين تركت الدولة الاسـلامية الكبرى لابنه الملك الصالح اسماعيل وهو صبى يبلغ من العمر نحو إحدى عشرة سنة وجعل مقامه بدمشق وحلف له الأمراء الكبار وضربت النقود باسمه فى كل جهة من أول مصر الى أطراف الشام . وكان فى البلاد الشاميـة والجزيرة عواصم ثلاث أخذت القيادة فى حوادث تلك الأيام وهى دمشـق وحلب والموصل وكان أوّل صوت أذن بالاضـطراب فى دولة نور الدين آتيـا من نحو الموصـل إذ أن سيف الدين غازى ابن أخى نور الدين (أى ابن عم الملك الصالح) أسرع الى الاستقلال بمـا يليه من البلاد وأعلن نفسـه أميرا على الجزيرة وكان حوله من أمرائه من يحسن له أن يذهب الى الشام ويستولى عليها فليس بهـا من مانع . ولكنه آثر أن يقنع بالجزيرة. وبقيت الشام فى أيدى الملك الصالح أو بقول أدق بقيت فى أيدى الأمراء الذين استولوا على الملك الصالح تحت اسم الوصاية عليه وتولى تربيته . فكان الأمر فى الواقع فى يد شمس الدين محمد بن عبد الملك المشهور بابن المقـدّم بدمشق . وشمس الدين على بن الداية وهو أكبر الأمراء النورية وكان فى حلب . وقد شهد الفرنج ما أصاب دولة نور الدين من الصدع بعد موته، فان مصر صارت مستقلة

ولو أن صلاح الدين كان لا يزال خاضعا فى الظاهر للملك الصالح داعيا باسمه على منابره، وكانت الجزيرة فى يد سيف الدين غازى وحلب فى يد شمس الدين بن الداية ودمشق والملك الصالح بها فى يد شمس الدين محمد ابن المقدم . وكان بين هؤلاء جميعا تنافس على أيهم يسود وكل منهم ينظر الى الآخر مترقبا حذرا أن يثب به اذا هو لقى منه غرة . فانتهز الفرنج الفرصة وألقوا بفرسانهم الى دمشق وما جاورها؛ ولم يستطع شمس الدين ابن المقدم أن يقاوم هجماتهم . أو لعله كان يستطيع ولكنه آثر أن يذل لهم زعما منه أن الأمراء فى الموصل وحلب . وصلاح الدين فى مصر، اذا رأوه منشغلا فى حرب الفرنج ينتهزون فرصة إنشغاله فيهبطون على ما فى يده فيسلبون طعمته . وهكذا يضمحل أمر الدول اذا هوى فى أيدى قوم لا يتطلعون الى أبعد من أنوفهم ولا يدركون إلا ما تقدره نفوسهم الصغيرة .

فصالح شمس الدولة بن المقدم الفرنج على من يعطيه لهم وأسرى يطلقهم ممن كانوا عند المسلمين منذ حروب نور الدين .

وأعقب ذلك بالشام تنافس شديد بين أمير حلب وأمير دمشق على أيهما يستولى على الملك الصالح وأدى ذلك الى أخذ الملك الصالح الى حلب ثم الى مفاوضة مع سيف الدين صاحب الموصل أن يأتى الى الشام لكى يحمى دولة نور الدين من سفه أمرائه

المتنافسين ولكن سيف الدين أبى أن يتدخل فى ذلك فارتدت المفاوضة الى جهة مصر وبلغت الدعوة صلاح الدين ليأتى الى الشام وكان قد فرغ من إصلاح أمر مصر وتثبيت قواعد دولته فيها . فلبى الدعوة وسار نحو دمشق وبذلك بدأ أول خطوة فى سبيل التدخل فى أمر حكام الأنحاء الأخرى من الدولة الاسلامية ولن ينتهى السير به فى ذلك السبيل دون توحيد جميع الدولة فى يده فتكون قوة واحدة للجهاد كما كانت فى يد نور الدين . وقد وقع ذلك ما بين سنتى ١١٧٤ م — ١١٨٦ م .

٩ — الافرنج أمام الاسكندرية

كان موت نور الدين كما قدمنا مؤذنا بسعى الفرنج من جديد لكى يستردوا ما أخذه منهم ذلك الملك العظيم فثاروا بالشام وذهبوا الى قرب دمشق وكان أبناء نور الدين ووزراؤهم على غير ما عهد الفرنج من أبيهم العظيم وكذلك ظن الفرنج الذين اشتركوا فى التآمر على صلاح الدين كما أسلفنا أنهم يستطيعون عند ذلك أن يضربوا ضربتهم لتكون قاتلة . فاجتمع لهم سفن كثيرة من الشام وصقلية بلغت عدتها نحو ٢٨٢ سفينة وجاءوا الى الاسكندرية ونصبوا المجانيق والدبابات عليها فى يوليو سنة ١١٧٤ م ولكن شتانه

بين ما لقيهم به صلاح الدين من العدّة وبين ما لقيهم به وزير الملك الصالح بدمشق فقد كان أهل مصر واثقين بقائدهم وحاكمهم ولهذا أبدى أهل الاسكندرية من الشجاعة ما أدهش المهاجمين ثم وصلتهم نجدات العسكر فزادهم ذلك صبرا فى الحرب ثم بلغ الأمر الى صلاح الدين فأسرع بجيش الى الاسكندرية وبالغ فى الاحتياط فأرسل جيشا آخر الى دمياط فلما عرف المدافعون مسيره اليهم دبت فيهم حماسة عظيمة وأبلوا بلاء حسنا فهزم الفرنج وغرقت لهم سفن كثيرة وفشلت حملتهم فشلا تاما ولسنا ندرى ماذا كان يحدث لو وقع الهجوم من أربعة شهور قبل أن يقضى صلاح الدين على رءوس المتآمرين فى داخل البلاد .

١٠ — استتباب الأمر لصلاح الدين فى مصر

دخل صلاح الدين مصر أول مرة مع عمه سنة ١١٦٤ م ودخلها آخر مرة مع عمه أيضا سنة ١١٦٩ م ثم أقام بها وزيرا للعاضد الى سنة ١١٧١ م ومن ذلك الوقت صار فيها شبه ملك مستقل خاضع لنور الدين على الأسلوب الأقطاعى وقابل مشاكل مصر العديدة منتصرا فى كل موقف بغير أن يحدث زعجة أو يثير ضجة . بل لقد وقف وهو وزير بين نور الدين السنى المجاهد وبين العاضد الفاطمى

واستطاع بكياسته وحسن اختياره أن يحفظ توازنه ويسير الأمور سيرا ناعما فلم يحقد عليه العاضد بل ظل على تقديره والاخلاص اليه حتى مات وليس أدل على ذلك من طلبه رؤيته وهو فى أشد حال من مرضه قبل وفاته . وكذلك لم يجد نور الدين فى سلوكه ما يجعله يندم على اقرار أمره والموافقة على تقديمه أمام الجلة من كبار أمرائه . ثم أصبح بعد موت العاضد ملكا على مصر فعلا مع بقائه على الخضوع لنور الدين ، وبدأ يشترك فى أمور الدولة الاسلامية العامة فى حين ضبطه لمصر فى داخلها وخارجها ، فاذا قلنا ان سياسته كانت تامة النجاح لم يكن فى ذلك شيء من المبالغة ، اذ ما أتى آخر عام ١١٧٤ م حتى كان قد أسس دولة فتية على رأسها جيش واثق برئيسه وتدعمه سياسة اقتصادية حكيمة ملأت خزائن الدولة بغير أن تنسى الاصلاح والتعمير واذا كان لرأى الشعب فى تلك العصور قيمة فقد أدرك الشعب المصرى أن فوقه رجلا ولا كالرجال بل هو القائد الفذ والمصلح الذى لم يعهد مثله فهدأت أحوال مصر وسارت فى سبيل الاطمئنان الذى سيعدها لاستقبال عصرها المجيد أيام دولة بنى أيوب ومن جاء بعدهم من السلاطين المماليك ، فلا نسمع بعد بثورة إلا كان القضاء عليها أمرا لا يحتاج لأكثر من أيام كثورة قامت بها البقية القليلة من أعداء دولة صلاح الدين وكانت فى الصعيد

بقيادة رجل يعرف بالكنز فلم تلبث أن قضى عليها قضاء يدل على أن أساس الدولة قد صار راسيا متينا .

ولم ينس صلاح الدين أن يجعل لمصر حصنا كما كان لبلاد الشام حصون ولم يرض عن سور القاهرة ولا عن حصنها فصعد فى الجبل واختار أقرب رأس منه مشرف على القاهرة وفكر فى أن يبنى عليه قلعة ولا نقدر إلا أن نرى فى عزمه هذا أثرا من آثار العصر وروحه فان المحاربين عند ذلك كانوا لا يبقون إلا فى القلاع سواء فى ذلك الفرنج والمسلمون . وكان الشرق من الشام الى فارس لا يرى العز والمنعة إلا فى القلاع فى تلك العصور المضطربة ، وكانت مصر بلادا سهلة فمن ملك ناصية الجبل المطل على عاصمتها استطاع أن يمتنع على المغير الأجنبي اذ غزا أرباض القاهرة وكذلك يستطيع من يملكها أن يظهر لكل ذى عينين فى تلك العاصمة أن هناك قوة كبيرة ماثلة أمامه يقبض عليه رأس الدولة ويقدر أن يقذف بها على من يخالفه .

ولكن مشاكل الدولة الاسلامية بعد موت نورالدين دعت صلاح الدين الى أن يترك مصر وأمورها الى حين . ولهذا لم يبدأ بناء القلعة والسور الذى عزم على إقامته بينه وبين القاهرة بل أجل ذلك حتى يقابل الأخطار التى كانت تهدد دولة نور الدين



باب زويله (مثل من بناء سور القاهرة)

فأسرع الى الثغرة ليسدها لأنه شعر أنه وارث العبء بعد وفاة العميد الأول (نور الدين) وأن عليه واجبا كبيرا وهو جمع الأزمة فى قبضة واحدة ليتم عمل السابقين فى جهاد أعداء الدولة الاسلامية .

١١ — حروب الشام الأولى

كانت رحلة صلاح الدين الأولى بالشام أشبه شىء برحلة زيارة إذ أنه لم يعد عدة حرب ولم يظهر بمظهر الفاتح وانما ذهب إجابة لدعوة توجهت اليه ووجد فى البلاد التى دعته استعدادا للانضمام تحت لوائه وسرورا بالاتحاد مع دولته المصرية العظيمة .

سار فى نحو سبعمائة فارس فى أواخر عام ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) حتى بلغ دمشق ولم يجد حربا لا من أصحاب البلاد المسلمين ولا من المسيحيين الذين على جانب طريقه فخرج اليه أهل دمشق وعسكرها ورحبوا به وأعلن أنه انما جاء فى خدمة الملك الصالح ونصرته وسلمت له القلعة بدمشق وحدث الانقلاب بغير سفك دماء . ثم سار الى الشمال نحو حمص وحماه وهو يردد إعلان أمره وانه انما جاء فى سبيل نصرة الملك الصالح ليمنع عنه جور ابن عمه سيف الدين غازى من جهة ، واستبداد أمرائه من جهة أخرى ، واعتداء الفرنج

على بلاده من جهة ثالثة . وقد قاومته قلعة حمص حينا الى ما بعد حصار حلب ثم سلمت اليـه . ولكن انضم اليه صديقه القديم (جورديك) وكان حاكما على قلعـة حماه وسارا معا الى حلب وكان الأمراء الذين مع الملك الصالح يفزعون من أن يستولى صلاح الدين على حلب خوفا من أن يكون الملك الصالح فى يده دونهم ، فقاوموا وجعلوا الملك يستثير حميـة أهل حلب للدفاع عنـه حتى ساعدوه مستبسلين وخرجوا الى حرب صلاح الدين — وقد بذل أمراء حلب فى ذلك الوقت همة فى الدفاع عن أنفسهم لم يكن صلاح الدين يتوقع مثلها منهم فقد كان الأمر أمر حياة أو موت لهم . ولهذا أرسلوا باسم الملك الصالح يستنجدون بمن يتوقعون منهم المساعدة لايبالون بشىء إلا بأن يخلصوا من خطر صلاح الدين . فأرسلوا الى الفرنج يطلبون مساعدتهم وكان كبيرهم (الكونت ريمون) حاكم طرابلس ويسميه العرب القمص ريمند ، وكان اذ ذاك أكبر أمراء ملك الفرنج المجذوم (بلدوين الرابع) . وكذلك أرسلوا الى سنان مقـدم طائفة الباطنيـة الفدائيين الاسماعيلية لكى يرسلوا فتاكهم يغتالون الرجل المخيف الذى قد يعجزون هم وحلفاؤهم عن مقاومته صراحة فى ميدان النضال الشريف وأرسلوا الى جهة ثالثة غير مؤملين منها مساعدة وهى الموصل حيث كان سيف الدين غازى .

فكان صلاح الدين يحاصر المدينة ويقابل دفاع أهلها الشجعان في حين كان القمص ريمند يتحرك عليه ليأتى اليه من الجنوب فيقطع عليه خط الاتصال مع قاعدة ملكه وفى الوقت نفسه أرسل رئيس الاسماعيلية جماعة من رجاله فوثبوا بصلاح الدين ولكنهم لم يقدرو أن يصلوا اليه . فرأى صلاح الدين أن قوته أقل من مقابلة كل هذه المقاومة التى ما كان يتوقعها وخشى من حركة الفرنج فى جنوبه فرفع الحصار عن حلب وعاد الى حمص ليقابل الفرنج ولكنهم عادوا ولم يخاطروا بحاربته عندما رأوه يتحرك ضدهم وأما هو فاغتنم الفرصة لكى لا يجعل من ورائه قلعة تهدد ظهره فاستولى على قلعة حمص التى كانت الى ذلك الحين تقاوم واستولى كذلك على بعلبك ثم عاد الى حلب بعد أن جمع من مصر إمداد لجيشه وأعد العدة للنضال والحرب الذى لم يكن فى نيته أول الأمر .

وقد كانت العداوة التى أظهرها أمراء الملك الصالح ومقاومتهم تلك التى استعانوا فيها بالفرنج والاسماعيلية ونزولهم الى وسائل يأباها النضال الشرعى — لقد كان ذلك سببا فى أن يقطع صلاح الدين اسم الملك الصالح وأن يعلن فى خطبته استقلاله منذ سنة ١١٧٥م وقد خلع عليه الخليفة العباسى ولقبه سلطانا وأصبح له مكان شرعى فوق قوته الفعلية فلما عاد الى حلب كما تقدم وجد جنود سيف الدين غازى

قد وصلت لأن ذلك الأمير قد تغلب عليه الخوف من صلاح الدين فبعد أن كان حذرا لا يريد التدخل فى أمور الشام رأى أن يساعد الملك الصالح حتى لا يدع ملك صلاح الدين يقوى ويصبح خطرا على استقلاله فى الجزيرة فقابل صلاح الدين جنود الموصل عند (قرون حماه) فهزمهم ثم عاد الى حلب فحاصرها حتى اشتد الأمر على من بها ففاوضوه فى الصلح على أن يبقى كل من الجانبين ما فى يده من البلاد وبهذ أصبح ملك صلاح الدين ممتدا من مصر الى حماه وجعل ينظم دولته الجديدة فولى على أقطاعها أمراء من أهله وممن يثق بهم .

غير أن الصلح بين الجانبين لم يدم طويلا وكان نقضه على يد سيف الدين غازى صاحب الموصل إذ عاد بعد عام الى حلب وكان صلاح الدين مطمئنا الى المعاهدة التى أبرمها معه فى العام الماضى فأرسل جنوده الى مصر وكانت تلك غرة منه لو عرف أعداؤه أن ينتهزوها ولكنهم لحسن حظه تباطئوا ولعل ذكر النصر الماضى الذى أحرزه صلاح الدين هو سبب ذلك التباطؤ الذى نشأ عن مبالغة أعدائه فى الحذر . فوجد صلاح الدين زمنا كافيا لجمع الجنود والسير الى أعدائه والراحة بعد جهود السير السريع وكان لقاء جيش سيف الدين قرب حلب عند (تل السلطان) وهناك كان اسم

صلاح الدين وعدم ثقة جنود سيف الدين بقوادهم سببين داعيين الى الانهزام بغير مصاف وهرب سيف الدين عائدا فى خوف الى الموصل تاركا جيشه تحت أخيه عز الدين . وتبع صلاح الدين المنهزمين الى حلب وبعث بعوثه الى الحصون المجاورة مثل منبج واعزاز ففتحهما . وحدث له فى حصار اعزاز حادث يستحق أن يذكر وذلك أن فتاكى الاسماعيلية عادوا مرة أخرى الى الوثوب به حتى أن أحدهم وصل اليه وضربه فى رأسه بسكين ولولا المغفر لقتله فأمسك صلاح الدين بيده ولكنه لم يقدر على منعه من الضرب فكان يضربه فى عنقه ضربات ضعيفة لم تؤثر فيه اذ كان عليه الكزاغند يحميه واستمر الفاتك يحاول التخلص من قبضته ويضربه حتى أدركه بعض أمرائه فقتلوا ذلك الفتاك فهجم آخر عليه ثم ثالث فقتلا دونه ونجا صلاح الدين نجاة عجيبة . ولكنه مع ذلك بقى على حصار قلعة اعزاز حتى فتحها . فأصبحت حلب معزولة وسط أملاكه ورأى من بها ضعف موقفهم ففاوضوا فى الصلح مرة أخرى . ومن العجيب أن صلاح الدين مع انتصاره ومع ما شهده من دناءة أعدائه فى التجائهم الى النذالة فى الكيد له ونقضهم العهد معه تقول من العجيب أنه قبل مفاوضتهم ولم يشتط عليهم فى الشرط بل ترك لهم حلب ونزل لهم عن اعزاز اكراما لابنة

صغيرة لسيده نور الدين وكانوا أخرجوها اليه فطلبت منه تلك القلعة التى كاد يهلك فى أثناء فتحها فأجابها الى ذلك وأضاف هدايا ذات قيمة مراعاة لذكرى أبيها واتفق الجميع فى آخر يوليه سنة ١١٧٦م على أن يكونوا يدا واحدة على من ينقض العهد .

ولنترك هذا التصرف بغير تعليق لعله ينبئ بشىء مما كان عليه صلاح الدين أو لعل فيه ردا بليغا على من يتهمه بقلة الوفاء .

١٢ — موقف صلاح الدين

أمام أسرة نور الدين محمود

لا يضير الرجل العظيم أن يذكر له عيب ومتى كان الانسان كاملا؟ وهكذا أمر صلاح الدين فليس يضيره أن يقول قائل قد كان به نقص ولو كان ذلك النقص خلقيا . فكثيرا ما يعمد رجال الدول ولا سيما رجال السيف الى وسائل تأباها الأخلاق ولكن تبررها الحاجة العملية . فيمر عليها التاريخ متساهلا كأنما يهز رأسه مستسلما لطبيعة الأشياء ولكنا مع ذلك لا نرى رأى من يطعن على صلاح الدين فى موقفه أمام أسرة نور الدين ويتهمه بقلة الوفاء والجحود فانا نرى الوقائع كلها تدل دلالة لا شك فيها على أن صلاح الدين كان دائما يؤثر أن يخسر شيئا من الدنيا فى سبيل

الأخلاق والقلب وما كان هو ممن يتخطون الفضائل فى سبيل شىء من الأشياء ولو كان مما يكبر فى الأعين . حقا لقد سار صلاح الدين الى الشام واستولى على دمشق ثم وقف بعد ذلك وحارب جنودا اسمها جنـود الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين . وهكذا يقول بعض القائلين لقد كان صلاح الدين رجل طمع فى الدنيا فضحى من أجلها بما كان يجب أن يرعى من ذمة فى بيت له عليـه فضل النعمة والتربية .

لسنا ندرى ماذا كان هؤلاء يريدون؟ استولى الملك الصالح اسما وتنافس على اسمه الأمراء أيهم يسـود فيستعمل رقية ذلك الاسم فى النفوذ الى غرضه، وكان من وراء ذلك التنافس أن أصبحت الدولة الاسلامية واهنة محطمة تمدّ يدا سفلى الى أعدائها الفرنج بعد أن كانت تملى عليهم ارادتها أيام نور الدين . وقد كان صلاح الدين شريكا فى اقامة تلك الدولة العظيمة ونهد من نصرها ما كان يجعله يدرك مرارة الموقف الجديد من الخذلان ثم رأى الأمراء المتنافسين وهم يتهافتون على أشياء لا يقيم هولها وزنا وما كان نور الدين العظيم ايرضى عن ابنـه ومن استولوا عليه لو أنه شهد ما صنعو . وهذا نرى أن صلاح الدين كان يخطئ أفحش خطأ لو هو رضى بما وقع ولم يحرك يدا لمنع الصرح المجيـد من أن يهوى الى الأرض محطما .

وكان من حسن حظ دول الاسلام أنه اتبع ما أملاه عليه قلبه العظيم ولم يخش تهمة يتهمه بها جانب من الجوانب ما دام هو يحس من نفسه شرف ما هو صانع وخلاص نيته فى القصد الى المصلحة .

١٣ — فترة السلام

اذا قلنا أن صلاح الدين أقبل منذ سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) على فترة سلام دام نحو ست سنين الى سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) فليس معنى هذا أنه لم يحارب طول تلك المدّة ، إذ أنه لم يخل عام من حياته من حرب منذ دخل ميدان العمل . وقد كان عصره عصر كفاح مستمرّ وعصر اضطراب وثوران فى داخل النفوس واضطراب وثوران فى العالم الخارجى ، وقد كان هو نفسه نتيجة ذلك الاضطراب الى حدّ عظيم . وإذا فمعنى أن هذه الفترة كانت فترة سلام ينصرف الى علاقاته بالدول الاسلامية فانه يظهر فى هذه السنين الست بمظهر المصلح الداخلى الذى يريد أن يقيم دولته على قواعد ثابتة من القوّة الحقيقية قوّة الثروة والقانون . فكان يتردّد بين مصر والشام يصلح من أمر مصر بحسب ما تقتضيه حاجاتها الزراعية ويحاول أن يحصنها تحصينا يمنع اقليمها السهل أن يكون طعمة للغيرين ولم ينس أن طبيعتها تستلزم حكومة موحدة قوية

المركز فقلل من الأقطاع فيها وجعل أمراء الأقطاع الذين فيها لا استقلال لهم ولا تصرف الى جانب الحكومة المركزية وجعل يقيم فيها المدارس والمستشفيات وأمثالها من مستلزمات المدنية المستقرة على حين كان يصلح من أمر بلاد الشام بحسب ما يقتضيه موقعها اذ كان ذلك القطر جبهة الاسلام وميدان النضال بينه وبين القوة المسيحية المغيرة فكان من الطبيعى له أن تغلب عليه الصفة الحربية فأقطع بلاده لأمرائه وجعلهم أشباه مستقلين تحت زعامته لا يطمع منهم فى أكثر من أن يتبعوه الى الحروب ويظلوا معه حتى يعطيهم الدستور فيعودون الى بلادهم . وكان فى كثير من الأحوال يدارى هؤلاء الأمراء ويقنع منهم بأن يخضعوا راغبين تحاشيا لكثرة الاحتكاك معهم وهم قوم قد جرأتهم كثرة الحروب وضراهم النضال المستمر فلم يكن نضالهم بالهين ولا شوكتهم باللينة .

ولعل انصراف صلاح الدين الى إصلاح دولته قد جعل جيرانه المسيحيين يشعرون بخفة وطأة الدولة الاسلامية ، أو لعل ظروف أوروبا ووجود حركة جديدة بها ترمى الى تعزيز كلمة المسيح فى الشام وتجديد قوة الصليبيين التى حطمها نور الدين ، أو لعل كلا السببين عملا معا على أن يتجرأ الصليبيون ويغيروا على ما يليهم من البلاد الاسلامية التى أخذت منهم فى مدة السنين الماضية ، ولهذا نجد

أن صلاح الدين فى هذه السنوات الست لم يكن فى سلام تام ولكن أكثر الحروب التى خاضها كانت مع المسيحيين ولم يكن هو البادئ بها بل كان فى أغلبها مدافعا .

على أنه كان بين حين وحين يدخل فى نضال هين مع بعض الأمراء المسلمين إما لخروج أمير من أمراء أقطاعه عليه وإما لتمنع جار عن أداء واجب تعهد به .

كان أول عمل اهتم له السلطان بعد صلح سنة ١١٧٦ م محاولته القضاء على الاسماعيلية لتكرر اعتداء فتاكيهم عليه . وكان لهم قلاع بالشام أكبرها (مصيات) فذهب اليها ونهب عسكره منها غنائم كثيرة واكتفى بهذا المقدار ورجع عنهم بشفاعة خاله .

وبعد ذلك بدأت أول حلقة من سلسلة مواقعه مع الفرنج وكان الحرب بين الطرفين سجالا ولكن صلاح الدين ابتدأ حروبه بانهزام عظيم سنة ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ) عند الرملة وكان ذلك الانهزام نتيجة نقص فى الاحتراس وتراخ فى النظام عند ما كان جيشه يعبر نهرا . وقد قتل فى تلك الواقعة جماعة من أهله وأسر غيرهم وكان من أعز الأسرى عليه الفقيه المحارب عيسى الهكارى صديقه القديم الذى كان له يد كبرى فى منع خروج الأمراء عليه عند ما تولى الوزارة بعد موت عمه شيركوه ، وقد افتداه السلطان بستين ألف

دينار . وكانت كسرة الرملة ذات أثر كبير فى نفسه حتى أنه ذكرها لأخيه شمس الدولة تورانشاه فى خطاب قال فيه :

"ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر"

ويقول أيضا : "لقــد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله إلا لأمر يريده سبحانه" .

وقد أطمعت واقعــة الرملة المسيحيين فساروا الى حماه وكان صاحبها حل صلاح الدين «شهاب الدين الحــارمى» ولكن حظ الافرنج كان هذه المرة أقل سعدا فانهزموا بعد أيام أربعة ، وساروا الى قلعة حارم (بقرب حلب) وهى داخلة فى دولة الملك الصالح — فلم يقــدروا على أخذها كذلك ، وأغاروا على حمص فاكتفوا بنهب ما وصلت اليه أيديهم .

وكان صلاح الدين قد عاد الى مصر بعــد كسرة الرملة ليصلح ما أفسدته تلك الهزيمة ولم يطل مكثه بها بل عاد الى الشام وكانت عودته فى الوقت المناسب لأن الصليبيين كانوا يسيرون بين حلب ودمشق فى جرأة لم تعهد منهم منذ نصف قرن . ومنذ عودته الى الشام رجحت كفة المسلمين فهزموا أعداءهم مرة قرب دمشق سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وسار صلاح الدين بعد ذلك الى حصن كان الفرنج بنوه بقرب دمشق واسمه مخاضة الأحزان وهناك كانت

موقعة كبرى سنة ١١٧٩ م (٥٧٥ هـ) هزم فيها الفرنج وأسر كثير من أبطال الصليبيين مثل مقدّم الداويه (رئيس فرقة التمبل أو المعبد)(١) ومقدّم الاسبتارية (رئيس فرقة القدّيس يوحنا)(١) و (هيو)

---

(١) بعد انشاء الامارات الصليبية الأربعة لم تنقطع البعوث الصليبية عن المجيء الى الشام لامداد الجيش المحارب ضدّ المسلمين ولكن بعد نحو نصف قرن من انشاء تلك الامارات ذهب الجيل الأوّل من أبطال الحرب الأولى وشعر المسيحيون بالنقص الذى طرأ على صفوفهم وكان فى أوروبا منذ القرن العاشر حركة اصلاح فى الدين كانت ترمى الى اعادة الفضيلة المسيحية بانشاء الأديرة والطوائف الدينية (النساك والرهبان) على مبادئ الزهد والفضيلة ، فلما انصرفت الهمة الى الحروب الصليبية كان من الطبيعى لأوروبا أن يكون قادتها من المتحمسين وأكثرهم من رجال الدين فى انشاء فرق من رهبان محاربين يجمعون بين فضائل الزهد والنسك وبين فضائل الانتصار للدين وكانت نتيجة تلك الحركة طوائف أكبرها طائفة التمبلار أو فرسان المعبد ويسميهم العرب (الداوية) وينسبون الى الهيكل أو المعبد وهو معبد سيدنا سليمان حيث أقامت طائفتهم ثم طائفة الهسبتاليين أو فرقة القدّيس يوحنا ويسميهم العرب (الاسبتاريه) وينسبون الى مستشفى بناه تجار ايطاليون ونسبوه الى القدّيس يوحنا تبركا . وكانت امرقه فى أول أمرها تقيم فى بناية أطلق عليها اسمه .

وكان رهبان هاتين الطائفتين من أكبر العاملين على الدفاع عن المسيحيين بالشام مدّة قرن تقريبا اذ كانوا هم العمود الفقرى لجيش الصليبيين ويعرفون بالنظام والاستقامة والزهد والشجاعة وقد أقر المسلمون أنفسهم بذلك رغم العداوة التى كانت بين الجانبين .

صاحب طبريه وما زال صلاح الدين بعد ذلك النصر حتى فتح الحصن (مخاضة الأحزان) ودمره وألحقه بالأرض . ومنذ ذلك الحين استمر الرجحان الى جانب الدولة الاسلامية وأخذ صلاح الدين خطة الهجوم وكان يده اليمنى فى هذه الحروب الأمير عز الدين (فرخشاه) ابن أخيه (شاهنشاه) وكان بطلا أظهر مقدرة كبرى فى موقعة دمشق سنة ١١٧٨م وموقعة مخاضة الأحزان سنة ١١٧٩م وقد جعله صلاح الدين أميرا على بعلبك ومن هناك جعل يهوى على جوره من بلاد الفرنج مثال الكرك سنة ١٨٨١ م وكان من أمنع حصون الفرنج وصاحبها البرنس ارناط (رجنالد دى شاتيون) وهو من أشجع أمراء الفرنج كما كان من أقساهم وأكثرهم غدرا .

وكان صلاح الدين فى أثناء هذه الحروب غير خالص من المتاعب مع جيرانه المسلمين ولكن يجب أن نذكر أن الملك الصالح وسيف الدين غازى (الثانى) بقيا على عهدهما الى أن لحقا بربهما وسواء أكان ذلك برا بالعهد أم خوفا من النضال الذى لا أمل للانتصار فيه فان صلاح الدين لم يذم جوارهما بعد صلح سنة ١١٧٦م وكان أكبر نضاله مع صاحب قونيه وهو (قلج أرسلان) ولا حاجة بنا أن نقول أن قلج أرسلان رأى بعد قليل أن الحكمة فى أن ينثنى أمام قوة جاره العظيم .

١٤ — أعمال صلاح الدين بمصر

بين سنة ١١٧٦ م — ١١٨١ م ٥٧٢ — ٥٧٧ هـ .

كان صلاح الدين يتردّد الى مصر بين حين وحين عند ما يرى يده خالية من أعمال الحرب فى الشام وما يليها وكان ينتهز فرصة وجوده فى تلك البلاد لكى يقيم فيها المدنية التى هى جديرة بها فقد كان يحس أن مصر هى الأقليم الذى يليق للمدنية بحكم تكوينه وطبيعة موقعه. فان ذلك الوادى الخصب منعزل عن العالم الخارجى بصحارى تكنفه من الشرق والغرب، وحدوده من الشمال طبيعية لا يسهل على المغير اختراقها لا سيما فى تلك الأزمنة. فلا بد أن تكون مدنية وأن تكون دولة عظيمة اذا وجدت من يسير دفتها تسيير حكيم خبير. وقد أدرك صلاح الدين بعينه الثاقبة وذكائه المتوقد أن عظمة تلك البلاد فى الماضى آية دالة على أنها من اصلح أراضى العالم للمدنية لو عرف أهل الحكم فيها كيف يصلون الى إقامتها من قواعدها الصحيحة. ولكن الحرب عدو للاطمئنان والاستقرار والمدنية لا تنبت إلا فى جو من الطمأنينة التامة. ولهذا رأى أن يجنب ذلك القطر شرور الاضطراب بقدر ما تسمح به الظروف فعمل ما فى وسعه لتحصين بلاد الشمال من إغارة الفرنج بعد أن علم



مرج فى سلمـــة

من سبقت لهم إغارة عليها أن حربه تكلفهم كثيرا . ثم رأى أن الوقت لائق لتحصين الداخل ببناء القلعة التى سبق له التفكير فيها وبناء سور حول العاصمة يقيها العدو اذا هو هبط اليها .

فبدأ فى بناء القلعة بعد عوده من الشام سنة ١١٧٦ م بعد أن انتهى من الصلح مع الملك الصالح وسيف الدين غازى (الثانى) وبعد أن فرغ من نهب بلد الاسماعيلية كما تقدم ولكنه لم يستطع إتمام كل البناء فى حياته لأن الحروب لم تلبث ان دعته مرة أخرى الى ترك ما فى يده من الأعمال الوادعة وخوض غمار الدماء بعد سنة ١١٨١ م وسيظل فى ميدان القتال بعد ذلك الى وفاته .

وليست القلعة الحالية التى نراها بالقاهرة هى قلعة صلاح الدين بعينها فقد دخل عليها من التغيير شىء كثير فى مدة من جاء بعده من أسرته أولا ثم من دولة المماليك بعد ذلك والذى تم بناؤه من القلعة فى حياة صلاح الدين هو هيكلها و بئر الحلزون الذى حفر فى الصخر الى عمق نحو تسعين مترا وكذلك السور بين القلعة والقاهرة — على حافة الجبل الشرقى فى المكان الذى به (باب الوزير) . وأما سائر القلعة فلم يتم إلا فى مدة الملك الكامل ابن أخيه بعد نحو ثلاثين سنة من وفاته . وقد أقام صلاح الدين سورا آخر على حافة الصحراء الغربية بالجيزة تحصينا للقاهرة من الغرب ولكن ذلك العمل كان



..ب فى قلعـــة صلاح الدين

فى مدة متأخرة بعد عام سنة ١١٨١ م . وبناء القلعة والسور ليس مثل بناء سور القاهرة القديم ولا مثل السور الذى جدّده بدر الجمالى فى دولة الفاطميين فان مبانى القاهرة كانت فى الغالب على النمط البوزنطى منقولة عن مبانى القسطنطينية والدولة الرومانية الشرقية .

وأما مبانى قلعة صلاح الدين فكانت على النمط الفرنجى وليس ذلك بغريب فقد نشأ صلاح الدين فى الشام وحارب فيها وعرف أساليب دفاع الفرنج فى حصونهم فكان ذلك النمط أقرب الى نفسه ولعله كذلك كان أوفى بغرضه من النمط البوزنطى وكان يجعل عماله فى بناء القلعة جماعات من الأسرى المسيحيين الذين كان يأسرهم فى حروبه .

لكن نظر صلاح الدين الى الاصلاح لم يكن مقصورا على التحصين بل أنه كان يرى أن أساس عظمة الدولة لا بد أن يكون الشعب فانصرف الى العناية به .

ولقد كان صلاح الدين بطبعه رجل سلام ومدنية ولو أنه كان ملكا فى غير تلك العصور لكان كالمأمون وأمثاله ولكنه اضطر بحكم عصره أن يجعل حياته للكفاح والنضال ولذلك نجد أعمال السلم قليلة الى جانب حروبه العظيمة .

فبينما كان يطهر الترع القديمة ويقوى جسور النيل وينظم ضرائب بمساعدة رجال أفاضل مثل القاضى الفاضل والعماد الكاتب



صورة «ب» فى سور القاهرة على اشكال ابوزيى

كان لا ينسى الوجهة الأدبية فأدخل نظاما جديدا فى التعليم لم يكن من قبل موجودا بمصر وذلك هو نظام المدارس .

لقد كان من قبل فى مصر مدارس كبرى مثل دار الحكمة والأزهر وجامع عمرو ولكن الأولى والثانى كانا خاصين بتعليم أسرار الشيعة والباطنية فكان التعليم بهما مصبوغا بصبغة الدعوة الفاطمية وأما جامع عمرو فكان فى الواقع مدرسة صغيرة لا تفى بغرض التعليم العام ولهذا بدأ صلاح الدين بادخال نظام المدارس العامة التى يسمح فيها بالعلم لكل من شاء وبدأ فى ذلك منذ صار فى مصر وزيرا للعاضد الفاطمى . وما زال بعد ذلك يزيد فى هذه المدارس حتى صار منها كثير فى أنحاء القاهرة مبعثرة من قرافة الامام الشافعى فى الجنوب الى سوق السلاح فى الشمال ولعل عظمة الأزهر بصفته مدرسة للعلم لم تبدأ إلا منذ ذلك الوقت . ولكن لم يكن فى تلك المدارس ما سمى باسم صلاح الدين ولعل ذلك كان ناشئا من خلقه المتواضع فلا نعرف إلا قليلا من أعماله ما أطلق عليه اسم نفسه قصدا .

على أننا لا نستطيع أن نقول أن صلاح الدين أدخل التعليم بالمعنى الحديث وإلا كان ذلك إنكارا منا لروح العصر . فان التعليم الدنيوى أى تعليم الناس كيف يعرفون الحياة ويعملون فيها لم يكن

القصد من المدارس فى ذلك الوقت — فان أكبر ما كان يدرس فيها هو القانون أو الشريعة على المذاهب الأربعة . وأما التعليم الصناعى وغير ذلك من فروع العلم المتعلقة بالحياة المادية فلم يكن ذا شأن فى تلك المدارس . بل كان متروكا الى أهل الصناعة أنفسهم كل طائفة تسير على خطتها فيه ويتعلم الصغار بالممارسة طريقة الكبار الذين سبقوهم فى الصناعة .

وأما التعليم الحربى فكان فى داخل الجيش نفسه وكان كل ما يتعلق بآلاته وستعملها يتعلمه الأفراد ممن نبغوا فى الفن . وكان رجال الجيش كلهم أو على الأقل جلهم من الأتراك والأكراد الذين فى خدمة الأمراء فكان التعليم مقصورا على طائفتهم فيدخل الصغير الخدمة ولا يزال بها يتقلب على أنواع الأعمال ويتعلم أثناء ذلك تدريجيا ما يؤهله للجندية واستمر هذا الى أن زاد الأمر زيادة كبرى فى هذا السبيل عند ما صار الجيش من المماليك بعد عصر صلاح الدين وصدر الدولة الأيوبية .

واذ قلنا أن التعليم فى ذلك العصر كان ناقصا من هذه الجهة فليس معنى ذلك أنه كان ناقصا اذا قسناه بما كان فى العالم اذ ذاك فان الواقع كان غير ذلك . لأن الدولة الاسلامية كانت فى ذلك العصر هى الدولة المستنيرة ذات العلم والصناعة والمدنية الموروثة.

عن القرون الماضية من مدنيات الدول الاسلامية السابقة . في حين كان العالم الغربي لا يزال ناشئا يفتح عينيه لأول أشعة النور الضئيلة .

وكان للاصلاح الذي أدخله صلاح الدين أثر عظيم في مصر بنوع خاص وذلك أن مصر بقيت بعد ذلك دولة محصنة قاومت الهجمات العنيفة التي صدمت العالم الاسلامي بعد ذلك بقليل عند هجوم التتار ذلك السيل الجارف المخرب واحتفظت مصر لهذا بكثير من العلم الأدبي ودراسة القانون الاسلامي فلم يحط مستوى الحياة الأدبية في الشرق عامة وفي مصر خاصة الى المستوى الذي هبط اليه في القرون الوسطى والعصور المظلمة في أوروبا بل بقي الشرع عاليا أمام الناس يحفظه كثير من أهل البلاد وتعلو أصواتهم بالاحتجاج على من يعبث بالناس ويخرق القانون فقال ذلك من سوء الحال أيام الاستبداد الذي هوى اليه العالم الاسلامي في القرون التي تلت القرن الثالث عشر[1] . ولعل هذا هو السر في أن الشعب

(١) مما يجدر بالملاحظة أن الشعب المصري في أيام سلاطين المماليك كان بعيدا عن الاهتمام بأمر الحكم في البلاد وكان كل الأمر في أيدي الجند وأمرائهم وهم من المماليك الذين يجلبون من فيافي التركستان أو جبال القوقاز . وكان الشعب المصري آمنا في صناعته وزراعته وتجارته لا يعبأ بشيء ما دام رزقه يأتي اليه وكانت الأرزاق على وجه العموم في تلك الدولة تأتي اليه في رخاء وسعة اللهم الا في أوقات المحن =

الاسلامى ولا سيما المصرى لم ينحط الى درك العبودية أو شبه الرق الذى كان فيه شعب أوروبا فى عصر جهالته . فقد كان من حفظة الشرع من ينشر على الناس أحكام القانون ويعلمهم ما يجب عليهم وما يحق لهم . ومن يرفع منار القانون عاليا أمام الحكام حتى لا تضل أحكامهم ضلالا بعيدا أو تجرفهم فوضى الحروب الى الاستهانة بالحريات . ولهذا كان الشعب دائما محتفظا بكثير من كرامته وحقوقه وأما ما نسمعه عن مظالم العصور التى أتت بعد القرن الثالث عشر فكان أكثرها مظالم مالية لا شخصية وكانت أكثر

= وانخفض شأنها . وكانت طبقة الحكام تتنازع فيما بينها وكانت فى تنازعها تنزل الى قسوة لا يعرف التاريخ مثلها إلا فى مثل تلك العصور المضطربة على أثر الحروب العظيمة ولكن تلك القسوة لا تتعدى صفوف الجند وكان الشعب فى بعده عن الحكم آمنا وادعا إلا أن حاجة الحكام الى الأموال كانت تؤدى فى كثير من الأحوال الى مظالم مالية فكان الشعب يضجر منه ويشكو الى جماعة العلماء الذين أصبحوا على مر الزمن رؤساءه الوطنيين وكان نفوذهم يزداد عند الشعب والحكام على حد سواء بازدياد البعد بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة . وكان السلاطين اذا سمعوا شكوى الشعب يرددها العلماء لا يسعهم إلا الاجابة وازالة أسباب الشكوى فى أكثر الأحوال . ومما كان يزيد فى قوة تلك المطالب أنها كانت تجىء على لسان العلماء وهم رجال الدين فكانت الشكوى ترتفع كذلك باسم الدين . والحق أن الدين الاسلامى والشرع أو (القانون) شىء واحد فاذا قلنا أن رجال الدين كانوا حماة الشعب كان معنى هذا أن حفظة القانون كانوا حماة الشعب واذا قلنا ان الدين كان محترما فمعنى هذا أن القانون كان محترما — فدراسة القانون (الشريعة) كان لها أكبر أثر فى حفظ مصر من الانحطاط الاجتماعى الذى كانت أوربا تئن منه فى عصرها المظلم فى تلك القرون .

المظالم الشخصية واقعة على الأمراء والجنود وهؤلاء منعزلون تمام الانعزال عن الشعب . فقد كان الأمراء يوقعون بعضهم ببعض ويخترقون القانون فى أثناء نضالهم ويرتكبون الفظائع ولكن ذلك لم يتعدّ كثيرا الى الأهالى الذين كان العلماء على رأسهم حماة للحريات الشخصية[1] . واستمر هذا الأثر طول مدّة استقلال مصر الى أن تغير الحال بعد فتح الأتراك العثمانيين لها .

١٥ — استئناف الحروب بالشام والجزيرة

لم يستطع صلاح الدين أن يبقى على أعمال الاصلاح رغم ميله للسلم فان الظروف دعته أن يترك العيشة العملية السلمية ويقبض على السيف مرة أخرى فانه فى مدّة الفترة التى سبق الكلام عليها فى الفقرة السابقة توفى صاحب الموصل سيف الدين غازى (الثانى) احد المشتركين فى صلح سنة ١١٧٦م وتولى بعده أخوه عز الدين إذ لم يكن له إلا ولد صبى صغير ورأى قوّاد الدولة أن تولية ذلك الصغير ذات خطر خوفا من أن ينتهز صلاح الدين تلك الفرصة فيضم بلاد الجزيرة والموصل الى دولته .

(١) يذكر ابن اياس قصصا عدّة عن قيام العلماء الى السلاطين وبث شكوى الناس من الضرائب ونحوها فى لغة شديدة وعن نزول الحكام على ما يحبه العلماء فى أكثر الأوقات .

ثم مات الملك الصالح أيضا سنة ١١٨١م وأوصى أن تسلم حلب الى ابن عمه عز الدين نفسه صاحب الموصل حتى لا يتمكن صلاح الدين من أخذها . وهكذا كان بيت عماد الدين زنكى يخشى كل الخشية أن يذهب ملكه الى صلاح الدين . ومن أجل هذه الخشية كان عز الدين ومن معه من الأمراء يجتهدون فى إثارة المصاعب أمام منافسهم القوى حتى لا يفرغ لهم . ولكنهم دلوا بذلك على أنهم لم يفهموا ما انطوت عليه نفس ذلك الرجل .

فانهم لو سكتوا عنه لكان أغلب الظن أنه يدعهم حيث هم فقد كان يقنع بأن يكون آمنا من ورائه بل انه كان يكتفى من فتوحه فى البلاد التى يحكمها حاكم مسلم بأن يخضع له ذلك الحاكم فيقره على حكمه ولا ينقص من سلطته شيئا أما وقد حاول هؤلاء أن يخونوه بإثارة المتاعب أمامه وتحريض أعدائه الفرنج عليه فقد رأى أنه لن يستطيع التفرغ لعمله آمنا إلا بعد أن يأمن ناحية الشمال من قبل حلب والجزيرة وعلى ذلك نراه ابتدأ بعد موت الملك الصالح بأن يضرب الضربة الفاصلة عند حدود دولته الشمالية .

وقد كانت الظروف مساعدة له — لأن خلافا نشأ بين عز الدين وبين أخيه عماد الدين زنكى (الثانى) على تقسيم تلك الدولة الشمالية واستقر بينهما الأمر أخيرا على أن تكون حلب

لعماد الدين والموصل والجزيرة لعز الدين وبهذا كان أمام صلاح الدين قوتان منقسمتان بدل دولة موحدة تقف فى سبيله .

خرج صلاح الدين من القاهرة فى مايو سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) وكان ذلك آخر عهده بها فقد بقى فى الشام فى حربه وجهاده الى ان مات سنة ١١٩٣م (٥٨٩ هـ) وقد حدث أثناء وداعه حادث اتفق صدقه فانه كان فى مجلس وداع ينتظر اجتماع الجيش ليسير وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من الحاضرين كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين منه وتنكد المجلس وقد صدق ذلك الفأل فلم يعد صلاح الدين بعد ذلك الى القاهرة حتى مات .

ذهب صلاح الدين الى الشام وبدأ باغارات صغيرة على بلاد الفرنج وحاصر بيروت حصارا قصيرا بمساعدة الأسطول المصرى الذى أصبح عند ذلك قوة يعتد بها فى حروبه . غير أنه لم يلبث فى هذه المناوشات طويلا بل قصد الى غرضه الأول وهو حرب الجزيرة فعبر الفرات سنة ١١٨٢م وساعده جماعة من أمراء عز الدين الموصل وهذا تمكن من امتلاك كثير من البلاد بغير حرب أو بحرب يسيرة وكان عز الدين قد أوعز الى الفرنج أن يهاجموا دمشق ليفرجوا

عنه إلا أن صلابة صلاح الدين تغلبت فبقى على حربه وحصر الموصل على أن مناعة المدينة جعلته يرفع حصارها ويذهب الى بلاد أقل منها مناعة مثل سنجار فملكها وبذلك صار له أغلب بلاد الجزيرة وأصبحت الموصل معزولة عن حلب وصار يستطيع أن يهبط الى كل منهما على حدة . فالتمس عز الدين مساعدة جيرانه من الأمراء مثل شاه الأرمن (وهو أمير مسلم) ولكن ذلك لم يجده كثيرا فتفرق عنه حلفاؤه بعد قليل .

واستمر صلاح الدين على تملك البلاد الجزرية وشمال الشام مثل آمد وتل خالد وعينتاب وكان انتصاره فيها كما سبق نقول سهلا فى أغلب الأحوال لميل الأمراء الى الانضواء تحت لوائه المنصور وترك جانب عز الدين .

وفى أثناء هذه الانتصارات على أمراء الجزيرة وشمال الشام كانت الأساطيل المصرية فى البحر الأبيض والبحر الأحمر تحرز الانتصارات الباهرة على الفرنج حلفاء عز الدين ففى سنة ١١٨٢م انتصر حسام الدين لؤلؤ القائد البحرى المصرى عند أيلة على رأس خليج العقبة ثم عند ساحل الحوزاء فى شمال الحجاز على جماعة من الفرنج أرسلهم البرنس أرناط (رجنالد دى شاتيون) صاحب الكرك ليوقعوا بالمسلمين الذاهبين الى الحج وقد أخذ لؤلؤ جماعة من أسرى

الفرنج وأرسلهم الى "منى" لينحروا بها فكان ذلك جوابا قاسيا على محاولة ارناط الفتك بالحجاج المسلمين وكان الأسطول المصرى بالبحر الأبيض يتربص بالفرنج اذا هم قربوا من سواحله وكان كثيرا ما ينقض على سفنهم فيأسر ويغنم حتى اضطر المسيحيون الى عقد هدنة مع صلاح الدين لمدّة أربع سنوات تنتهى سنة ١١٨٨م (سنة ٥٨٤ هـ) .

وقد توجت انتصارات صلاح الدين أخيرا بملك حلب سنة ١١٨٣ م أخذها من عماد الدين زنكى الثانى صاحبها على أن يعطيه بدها بعض بلاد الجزيرة — وبذلك أصبح آمنا على حدوده الشمالية وصار عماد الدين الضعيف حاكما على غرب بلاد الجزيرة وهى بلاد يسهل عليه فتحها اذا أراد وأصبحت بلاد عماد الدين مانعا من الاصطدام بينه وبين الأمير القوى الشجاع عز الدين صاحب الموصل .

لم يجد صلاح الدين بعد ذلك صعوبة فى أخذ سائر القلاع الشمالية من الشام مثل حارم — وكان يقنع من أصحابها الأمراء المسلمين بالخضوع ويصالحهم على إقرارهم على مافى أيديهم بشرط أن يكون أقطاعا لهم وأن يكونوا هم وعسكرهم معه اذا دعاهم الى الجهاد .

١٦ — آخر النضال مع الموصل

هل كان صلاح الدين ليقنع بدولته هذه ويرجع الى مصر ليضع أساس ملك ثابت الأركان ؟ أوكان لا بد له من الاستمرار على الحرب الى نهايته المرة ؟ لا حاجة بنا لأن نقف طويلا مترددين عند هذا السؤال فقد كان صلاح الدين وارث دولة نور الدين وكان عليه عبء الاستمرار على جهاده مع الفرنج وما كان يقدر أن يخرج على روح العصر وينتحى وادعا مسالما ولا يزال الخلاف بين الشرق والغرب على أشد ما يكون ولم تخب ثائرته ، ولو أنه استطاع ذلك وقعد عن الحرب لاضطر الى الدفاع عن دولته بعد قليل لأن الفرنج كانوا اذا شعروا بهدوء فى هجوم المسلمين قاموا فى تحقيق حلمهم القديم وهو تكوين دولة مسيحية عظيمة فى أحشاء الشرق الأدنى — فكان صلاح الدين مرغما على أن يحارب ، ولهذا رأى بعينه الثاقبة أنه لا بد أن يستعد للنضال الذى جعله قصد حياته ولم يبق أمام صلاح الدين بعد ذلك إلا خطوة واحدة حتى يصبح سيد كل الدولة الاسلامية بالشام والجزيرة فيقدر أن يهوى بتلك القوة العظيمة على الصليبيين فيضربهم الضربة التى كان يستعد لها طول تلك المدة . على أنه لم ينس أن يجس المسيحيين بين حين وآخر وكان موضع جسه حصن الكرك وفيه ذلك الفارس

الشجاع (ارناط) ، على أنه كان كلما حاصره عرف عجزه عن أخذه مع خوفه من جانب الموصل ، وكان موقنا أنه اذا اشتبك مع المسيحيين كان النضال نضال حياة أو موت فلا يفارق أحد الجانبين عنق الآخر الا بموت واحد منهما ، ولهذا آثر أن يبدأ بعلاج البثرة التى فى جانبه قبل أن يلج باب النضال الهائل مع أعدائه المسيحيين . وهكذا ذهب الى ميدان الموصل وقضى فيه ما بين سنة ١١٨٥ م — ١١٨٦ م (٥٨١ هـ — ٥٨٢ هـ) بين حصار لتلك المدينة وانصراف عنها ثم عودة اليها . وكان جماعة من أمراء الجزيرة يصحبونه فلما قرب من الموصل أول مرة سنة ١١٨٥م أرسل اليه عز الدين يطلب الصلح على يد جماعة من الأمراء وأرسل معهم والدته وابنة عمه نور الدين محمود سيد صلاح الدين وغيرهما من النساء النبيلات . وهناك كان كل الناس يعتقدون أن صلاح الدين لا بد أن يجيب طلب هذه الوفود لما كان معروفا عنه من رقة الخلق ولا سيما مع النساء ولما كان مشهورا عنه من إجلاله لبيت سيده نور الدين . ولكنه هذه المرة لم يعمل بما يوحيه اليه قلبه بل رأى الأمر أمر دولة يجب ألا يدخل فيه اعتبار العواطف فجمع أمراءه فأشاروا عليه برفض الرجاء وهكذا كان وارتكب صلاح الدين برفض طلب هذه الوفود خطأين أحدهما خلقى والآخر

سياسى واذا كان الخطأ الخلق لا يعنى أهــل السياسة فانه على كل حال يعنى من يدرس حياة صلاح الدين الذى لا يكاد المدقق يرى شائبــة فى خلقه من قسوة أو نقص فى المروءة والشهامة . على أنه قد يغفر له الخطأ لو اعتبرنا الظروف التى كانت تحيط به ، ورأى كبار أمرائه الذين أكدوا له أن أمر الدولة يجب ألا يدخل فى تدبيره ضعف الرحمة أو الحفاظ . وأما الخطأ السياسى فذلك أنه رفض الصلح وهو غير عارف تمــام المعرفة بحال خصمه ، وكثيرا ما يطلب الخصم الصلح وهو قوى حتى يخلص من ويلات الحرب أو لعــل الخصم يتظاهر بحب السلام لكى يضع خصمه أمام الناس موضع المعتــدى الظالم فيكسب عطف العالم . وعلى كل حال فقــد لقى صلاح الدين جزاء تلك الغلطة سريعا ويدلنا على حسن رأيه أنه عرف خطأه بعد قليل فعاد يلوم من أشاروا عليــه بسلوك سبيل المخاشنة وتحمل لوم من لامه وقبح فعله مثل القاضى الفاضل مساعده الكبير بمصر. وقد نجح عز الدين بسلوكه ذلك فى استنهاض همم الناس معه فساعده عامة أهل الموصل وحاربوا مع جنوده مستبسلين . وهكذا لم يقــدر صلاح الدين على أخذ المدينة وانصرف عنها مدة قضاها فى بلاد الأرمن الاسلاميــة التى فسد أمرها بعــد موت صاحبها (شاه أرمن) فاستولى على ميافارقين أكبر بلادها وحصونها وأقر

أمراءها عليها بشرط أن يكونوا تبعا له على حسب عادته كلما فتح بلدا اسلاميا ثم رجع الى الموصل فاستمر على حصارها وترددت الرسل بينه وبين عز الدين بالصلح فقبل أخيرا على أن يكون عز الدين تابعا له ويخطب له على منابر بلاده ويكتب اسمه على السكة وينزل له عن كل ماوراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة . وهكذا استقر الأمر أخيرا بين صلاح الدين وجاره الشجاع عز الدين الذى يمثل البيت المجيد بيت عماد الدين زنكى . وقد حدثت فى أثناء المفاوضة حادثة تستحق أن تذكر وذلك أن صلاح الدين مرض حتى أشرف على الهلاك وكان ابن عمه محمد بن شيركوه قريبا منه وكانت له أقطاع حمص والرحبة فسار الى حمص وجعل يمهد السبيل الى تملك الملك لو مات صلاح الدين ولكن صلاح الدين عوفى وعرف الخبر فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه على أثر ليلة شرب فيها كثيرا من الخمر — وتقول ألسنة السوء أن صلاح الدين دس اليه من قتله بالسم وهو ينادمه . والحق أن المؤرخين يظهرون فى هذه القصة كثيرا من الاحتراس فيقولون دائما «والعهدة على من يقول ذلك» لأنهم شاعرون أن مثل هذا العمل لا يتفق وما عرف عن صلاح الدين من الزهد فى الدنيا والتغاضى عن الاساءات — فقد كان يعرف من عدوه الغدر ثم اذا رأى نفسه قدر عليه عفا عنه

ولم يحرجه بل لقد كان يحسن الى عدوه ويتغاضى عن ماضي اساءته . فهل كان مثل هذا الرجل ليسم ابن عمه لأنه سمع عنه خبر عزم على أن يملك البلاد لو مات ولم يفكر في الخروج عليه ولا اضرام نار ثورة .

وهل كان صلاح الدين يخشى أن يجرد ابن عمه من أقطاعه او صح عنده العزم على عقابه ؟ انه كان على رأس الدولة يطيعه أمراؤه جميعا ويحبه أهل البلاد والعسكر على السواء فما كان من العسير عليه أن يعاقب ابن عمه بأية عقوبة لو رآه مستحقا لهذا . ولئن كان خشي من إثارة ثورة بين أمرائه أو بين أفراد أسرته او أوقع بابن عمه أما كان يخشى أن يثير ثورة أكبر بمثل هذا الغدر وتلك الخيانة ؟ على أن صلاح الدين أثبت اقطاع محمد بن شيركوه لابنه الصغير ولو كان الأمر قد بلغ حدّ أن يسقي الأب السم لما كان يرعى حقه في ابنه وقد قال ذلك الابن علنا مرة في حضرة صلاح الدين قولا يفيد أنه يتهمه بالاستيلاء على شيء من ميراثه لأن صلاح الدين كان قد أخذ للدولة أكثر آلاته وخيله وأمواله . ولو كان هنالك شك في أن صلاح الدين شريك في قتل أبيه لما كان تردد وله تلك الصراحة أن يتهمه بذلك علنا . ان الظنون تذهب في الخطأ بعيدا في العادة فما بالك وقد اتفق موت الرجل المتهم

بعد جنايته بفأة . انه من الطبيعى أن يظن الناس فى الأمر شيئا من الأسرار ولا سيما وقد كان ذلك العصر عصر أسرار خفية كثيرة .

على أن هذه القصة تلوح لنا محض رواية خيالية فيما يتعلق بابن عمه محمد بن شيركوه ولعل هناك خلطا بين الحوادث فقد ورد ذكر مثلها عن تقى الدين ابن أخى صلاح الدين وكان بمصر، وذلك أنه أثناء مرض صلاح الدين جرى من تقى الدين حركات تدل على عزمه على الاستبداد بالملك اذا مات السلطان . فلما عوفى بلغه الأمر فأرسل اليه صديقه الفقيه عيسى الهكارى وكان مطاعا فى الجند وأمره باخراج تقى الدين من مصر وأرسل فى نفس الوقت الى تقى الدين يدعوه الى الحضور الى الشام فعصى تقى الدين أولا وعزم على الخروج الى برقة وكان مملوكه (قراقوش) قد ملكها ولكنه عدل أخيرا وذهب الى الشام فأحسن اليه صلاح الدين وأقطعه حماه وبلادا كثيرة غيرها بالشام وأرمينيا ولم يعاقبه على شىء مما بدر منه بل أنه (لم يظهر له شيئا مما كان) .

فاذا كان هذا سلوكه مع من خالف وحاول العصيان أيكون غدارا قاتلا مع من نوى أن يستقل ولم يتعد عمله النية ؟

١٧ — الجهـاد الأعظم

عرض عام

دانت جميع البلاد لصلاح الدين من آخر حدود النوبة جنوبا وبرقة غربا الى بلاد الأرمن شمالا وبلاد الجزيرة والموصل شرقا . هـذا عدا تفضيل الخليفة له واعترافه بسلطانه وذلك ليس بالأمر القليل . وقـد كان فى ذلك مقنع لنفس ذلك الرجل لو كان يريد ملكا ونعمة، ولكنه كان ينظر الى تلك الدولة نظرة الحارس الى ما فى حراسته لا يرزأ منها إلا مقدار أجره . ويرى أن الملك انما هو وجب عليه يؤدّيه بما تقتضى نفسه ويحتم شعوره بالأمانة . ولهذا كان أقل الناس تمتعا بما فى يده من متاع . ولو كان صلاح الدين فى غير ذلك العصر الذى وجد فيـه لأنشأ مدنيـة عظيمة فى مصر والشام وحواشيهما ولتنكب ما يعوق التقدّم السلمى بمـا استطاع فقـد كان لا يحب خوض الدماء ، وكان يكره أن يرى من يحب سفك الدماء . ومما يذكر فى ذلك أن بعض صغار أولاده طلب منه مرة بعض الأسرى ليقتله فلم يرض وزجره فقيل له فى ذلك فقال انه يخشى على الولد أن يضرى على سفك الدماء وهو لا يميز بعـد بين المقدم الذى يستلزم القتل وغيره .

وكانت الحرب عنده شرا لابد منه وقد اضطر الى أن يقضى أكثر عمره فى حروب ودماء وذلك لأن روح العصر كانت تقضى عليه أن يكون محاربا طول عمره . فان الصليبيين أتوا من وراء البحار تدفعهم حماسة شبيهة بحماسة الطفولة الى فتح بيت المقدس والقضاء على الاسلام وقد نجحت صدمتهم الأولى فى تكوين دولة مسيحية ولكنها لم تكن دولة بالمعنى الصحيح اذ كان أساسها فوق السطح غير رأس على شعب فى البلاد بل عماده جماعات تأتى بين حين وحين من وراء البحار من متحمسى الدين . ولكن الحماسة تخبو كما تخبو النار بعد شدتها ولكل عصر مشاغل وآراء والمشاغل والآراء تتغير ولهذا بدأت الموجة تضمحل على طول القرن الثانى عشر وفى أثناء ذلك كان المسلمون يرون أنفسهم أهل بلاد أغار عليهم قوم من الأغراب يريدون سلب بيت يقدسونه هم كما يقدسه أولئك الأغراب وثارت عزة المسلمين من تذكر هزيمتهم أمام قوم كانوا يرونهم أقل مدنية وأدنى مكانة وهم الذين تعودوا فى تاريخهم الماضى أن ينتصروا على سواهم من مسيحيين وغير مسيحيين فى أكثر مواقفهم وكان عصر صلاح الدين لا يزال على هذه العقيدة التى دفعت زنكى ونور الدين الى الجهاد . فكان محتوما على مثله أن يقود الدولة الاسلامية التى أقامها الى حيث تحرز انتصارا جديدا .

وكان الوقت ملائما لانتصار صـلاح الدين فى جهاده أكثر مما كان فى مدة من سـبقه فان زنكى كان أميرا صغيرا يحاول صدم قوة المسيحيين فى عنفوانها وكان نور الدين يحارب المسيحيين وهم لا يزالون محتفظين بكثير من قوتهم وزادوا عليها فى النصف الأول من القرن الثانى عشر أن كونوا فرقتى الفرسان الرهبان وهما الداوية (فرقة المعبد أو التمبل) والاسبتارية (فرقة الهسبتاليين أو القديس يوحنا) . وكان فرسان هاتين الفرقتين من أكثر المحـاربين شجاعة فى الحرب وحماسة للدين . ولهذا كانوا شديدى الوطأة فى حروب المسلمين .

فلما أتى عصر صـلاح الدين فى أواخر القرن الثانى عشر كان المسيحيون قد أنهكهم طول الحرب مع المسلمين نحو نصف قرن أو يزيد وكان من يأتى من وراء البحار لامداد الصليبيين بالشـام لا يعوض من يفقد منهم أو على الأقل لم يكن الجديد مثل القديم نجدة ودربة . وزيادة على ذلك قد دب الفساد فى داخل الحكم وأصبح ملك بيت المقدس مثل أى ملك آخر اذا تقادم العهد على من بنوه، تتنازعه الدسائس والأغراض وكانت بقيـة بيت الملك فى أيام صـلاح الدين الأخيرة محصورة فى (بلدوين الرابع) أولا (وبلدوين الخامس) ثانيا . وكان الأول مصابا بداء الجذام ضعيف

لا يستطيع شيئا ، وكان الثانى فى يد أم لم يشهد التاريخ كثيرا مثلها غلظة ولا دناءة . وتشاحن الأمراء على الوصاية وكان أجدر هؤلاء الأمراء وأشجعهم (ريمون) صاحب طرابلس — إلا أنه بعد وصايته مدة عزل وتولى بعده رجل أحبته الملكة أم بلدوين الخامس . واسمه عند العرب (كى) وهو (جى دى لوسنيان) ولم يلبث الطفل بلدوين أن مات ويقال ان أمه قتلته .

ومن ذلك الوقت بدأ التنافس يتخذ شكلا جديدا — فان (كى) كان من أجمل الناس ظاهرا وأدنئهم حقيقة حتى ان أخاه قال مرة « اذا كان هذا ملكا فما أجدرنى أن أكون إلها » وكان من الطبيعى أن كبار الأمراء بالشام يحقدون عليه وأكبرهم (ريمون) الطرابلسى . والحقد يدفع الى شىء كثير حتى الى الخيانة ولهذا يلوح لنا أن ريمون بدأ يراسل المسلمين وكانت له يد فى انهزام المسيحيين .

الى جانب ريمون كان ارناط (رجنالد أو أرنولد دى شاتيون) صاحب الكرك وهو رجل من أشجع فرسان المسيحيين ولكنه كان غرا متهورا غدارا — فاذا كانت خيانة ريمون ساعدت المسلمين بتوطئة سبيل النصر لهم فان غدر ارناط وتهورة قد ساعدا صلاح الدين اذ جعلا الحق الى جانبه وقديما كان الحق قوة للمعتدى عليه ولو بعد حين .

١٨ — اتقاد النيران
(موقعة حطين)

اذا كان صلاح الدين قد فرغ من مشاغل دولته ودانت له الامارات الاسلامية جميعا بجمع كل تلك القوة الهائلة بين يديه واستعد ليقذف بها الصليبيين فيرميهم وراء البحر الذى أتوا منه، فان الصليبيين فى الناحية الأخرى كانوا على قلق كبير يريدون أن يقوضوا ذلك البناء المخيف الذى علا الى جانبهم يهدد وجودهم بالشام وكان جماعة من أمرائهم يدفعهم الخطر الداهم الى الاستبسال والاستماتة فى النضال . وكان من هؤلاء البرنس ارناط صاحب الكرك .

وفى جانب ارناط كان فرسان الداوية والاسبتارية يتحرقون شوقا الى لقاء المسلمين لعلهم يستطيعون بهجماتهم العنيفة صدع دولة صلاح الدين . فكان بذلك المسلمون والمسيحيون على السواء متحفزين للوثوب بحماسة متشابهة وكان ما بينهما جو من التحدى مملوء بالمادة الملتهبة تنتظر أول شرارة ليندلع لهيبها فيلتهم كل شيء . ولنذكر أن هدنة سنة ١١٨٤ م التى كان أجلها الى سنة ١١٨٨ م كانت لاتزال قائمة فى سنة ١١٨٧ م .

لم يكن ارناط حديث عهد بعداوة المسلمين فقد كانت جنوده تهوى على الحاج والتاجر، وأساطيله تسير فى البحر الأحمر تلتمس الفريسة الاسلامية ، ولكنا رأينا أنه لم يجد فى تصيده إلا ما لا يصاد من ذى شوكة حادة أو ناب قاطع . وكأن هدنة سنة ١١٨٤ م طالت به فدفعه تهوره الى خرقها وكان صلاح الدين لا ينتظر إلا ذلك الغدر منه ليبدأ بجهاده الذى استعد له .

سارت قافلة قيل أن فيها ابنة السلطان وشيء كثير من المال وكانت القوافل تجتاز بقلعته غير خائفة واثقة من العهد الذى بينه وبين السلطان . فأهوى ارناط الى تلك القافلة وغنم منها وقتل وأسر. فلما بلغ خبر ذلك الى صلاح الدين ثار ثورة مشروعة ولم يرضه ارناط كما كان ينبغى، فنذر السلطان أن يقتله بيده لو ظفر به وكانت تلك الحادثة هى الشرارة أشعلت نار الحرب التى لن تنتهى إلا بعد ست سنوات، كانت أعلام صلاح الدين تخفق بعدها على القدس وجميع بلاد الشام، إلا بضعة بلاد على الساحل .

أرسل صلاح الدين يجمع الجيوش فى ربيع سنة ١١٨٧ م وجعل مركز القيادة العليا دمشق فأتته الجنود من أطراف دولته وكان أول بعوثه اثنين : جعل أحدهما الى الكرك بقيادته هو للانتقام ومنع ارناط من مهاجمة الحاج والوقوف فى سبيل العسكر المصرى القادم

اليه، وأرسل الآخر الى عكا لكى يشغل الداوية والاسبتارية عن مساعدة الكرك . وقد نجح فى إحراز غرضه من هذين البعثين نجاحا تاما . ومما يجدر بالذكر أن ريمون لم يتحرك أثناء هذا للمساعدة .

فلما تكامل الجيش الاسلامى فى الصيف كان أمام صلاح الدين خطتان : الأولى أن يقف أمام الصليبيين فى معركة فاصلة ، والثانية أن يتابع الخطة القديمة من إغارات متكررة ونهب وسبى بغير معركة فاصلة حتى يضعف أعداءه أولا ثم يضرب الضربة القاضية أخيرا ولكنه فضل الخطة الأولى ولعل أكبر ما دفعه الى اختيارها شدّة حماسته فقد قال مرة « ان الأمور لا تجرى بحكم الانسان ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد » .

وهكذا سار الى طبرية فى يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يوليه سنة ١١٨٧ م وكان يتخير لغزواته أيام الجمعة «لتقع حروبه فى وقت تكثر فيه الدعوات والصلوات» . ثم خلف طبرية وراء ظهره وسار الى غربها عند ما علم أن الجموع الصليبية جاءت ووقفت له عند جبل طبرية من جهة الغرب . ولكن الصليبيين لم يبرزوا له وتحصنوا فى مواقفهم ، فأراد أن يحرضهم على لقائه فجعل يهبط الى طبرية فيخرب فيها ويغنم ويحرق . وكان

قصده من مهاجمة المدينة أن ينفر الجيش الصليبي لمساعدتها فيخرج من أماكنه فيلقاه صلاح الدين فى ميدان مفتوح وقد نجح فى ذلك نجاحا تاما فان الصليبيين تحركوا لنجدة طبرية فعاد صلاح الدين مسرعا عنها وجعل جيشه على الماء وأفنى ما أمامه من ماء الصهاريج وكان الوقت قيظ الصيف فلما أقبل المسيحيون لم يقدروا على بلوغ الماء الذى وراء المسلمين ولم يجدوا فى الصهاريج التى دونهم ماء فكانوا يحاربون على شدّة الجهد من العطش والحرّ، ولم يستطيعوا الرجوع الى حيث كانوا خوفا من جيش المسلمين . فكان هذا انتصارا لصلاح الدين قبل أن يضرب ضربة واحدة ، وعلت نفس جنود المسلمين ووثقوا بالنصر قبل اللقاء، فباتوا الليلة فى تكبير وتهليل بينما كان قائدهم المدرّب الذكى الحذر يراقب نظام جيشه ويوقف كل جماعة فى مكانها استعدادا للصاف فى الغد .

وحاول المسيحيون فى اليوم التالى بلوغ الماء كلفهم ذلك ما كلفهم، فمنعهم صلاح الدين من ذلك إذ أدرك قصدهم . وجعل يدور بهم حتى حصرهم حصارا تاما ، ولم يتمكن أحد من الخروج من تلك الدائرة إلا (القمص ريمون) فى جماعة قليلة وكان خروجهم من دائرة الحصار مكيدة دبرها ابن أخى صلاح الدين، وذلك أنه رأى أن قتال (ريمون) وجنوده قتال المستميت فأفسح لهم حتى

أخرجهم من الدائرة فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصرا ثم ما لبثت دائرة الحصار بعد ذلك أن التأمت فلم يجد ريمون أمامه غير ترك الميدان والذهاب عن الحرب جملة وضعفت صفوف الصليبين بذلك النقص فى عدد المحاربين .

وبدأت منذ ذلك الحين الهزيمة — غير أن المحصورين احتلوا تلا عند حطين وتحصنوا به مع ملكهم (كى) وأبلوا بلاء عظيما فى الدفاع عن أنفسهم . وكان المسلمون يكرون عليهم بين حين وآخر فتعود الجنود منحدرة عن التل وهى تحمل من الأسرى والأسلاب شيئا كثيرا وكان من بين ماغنموه صليب الصلبوت ، وكان السلطان يبعث ما فى نفسه من حماسة وثبات الى قلوب المحاربين فكانوا تحت عينيه يأتون بالعجائب من أعمال الشجاعة والاقدام ومثل ذلك أن واحدا من صغار مماليكه أخذته الحماسة عند رؤية سيده وقائده وهو صبي لم يبلغ حدّ الرجولة فحمل حملة منكرة على الفرنج وهو وحده فأوقع فيهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه فلما رآه المسلمون يفعل ذلك أخذتهم الحفيظة لقتله وثاروا ثورة فصدموا جيش الفرنج صدمة زعزعته . وبعد استمرار الهجمات العنيفة حينا هوت خيمة الملك بعد كرات ثلاثة واستأسر من بقى من الفرسان ، وكان النصر تاما لصلاح الدين وجنده وسجد شكرا لله و بكى من السرور .

وكان بين الأسرى الكثيرين فى هذه الموقعة الملك (كى) والبرنس (ارناط) .

« وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى فاذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى » .

وقد أكرم صلاح الدين الملك وقدّم اليه ماء مثلجا بعد ماوجد من جهد العطش والدفاع فشرب الملك وأعطى فضلة للبرنس ارناط فقال صلاح الدين عند ذلك « ان هذا لم يشرب الماء باذنى » يريد أنه لم يصر آمنا من عقابه . وكان إكرامه للملك لا يعادله شيء إلا تقريعه للأمير الذى أثار تلك النيران وهو (ارناط) الغادر فقال له «هأنا أنتصر لمحمد» وكان ذلك ردّا على سب (ارناط) لمحمد ودينه فيما سبق . ثم عرض عليه الاسلام فكان ذلك سخرا بليغا ، ولكن الرجل أبى فسل صلاح الدين النمجاة وضربه بها حل كتفه وتمم عليه من حضر وبذلك أوفى بنذره الذى سبق أن نذره اذا هو ظفر بعدوّه أن يقتله بيده عقابا لما قدم من نقض العهد . وقد اشتدّ خوف الملك عند ذلك وعظم اضطرابه فأمنه صلاح الدين وسكن جأشه قائلا « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فانه تجاوز حدّه بجرى ما جرى » يشير بذلك الى ارناط . وأما ريمون صاحب طرابلس فقد عاد بعد انهزامه من الموقعة الى صور ثم الى طرابلس حيث مات بعد أيام قلائل .

١٩ — توالى الفتوح بعد انتصار حطين

(فتـــح القـــدس)

بعـد موقعة حطين التى دامت يومين لم يبق صـلاح الدين فى مكانه بل هبـط الى طبرية فى اليـوم الثالث وهناك سلمت له القلعة وفى أثناء ذلك كان يبعث بمن يريد الابقاء عليهم من الأسرى الى دمشق و يفتك بمن يريد الفتك بهـم وكانت يده شـديدة على طوائف الفرسان الرهبان «الداوية والاسبتارية» وذلك لـما كانوا يبذلون من نفوسهم فى سبيل نصر المسيح بشـدة تدعمها حماسـة عظيمة وايمان قوى فى عقيدتهم . ولم يلبث صلاح الدين طويلا عنـد طبرية بل سار الى الغرب نحو عكا فلم يبق أمامها إلا قليلا حتى سلمت وهكذا كان انتصار حطين يسـبق صلاح الدين الى المدن فتسلم واحدة فواحدة وهى قوية على المقاومة . ومما يسترعى النظر أن صلاح الدين أعطى كل ما للداوية فى عكا لرجل من أصحابه كان على طريقة الفرسان المحاربين اذ كان فقيها محاربا وذلك هو الفقيه عيسى الهكارى صديقه القديم . وكانت غنائم عكا عظيمة أفادت جنود صلاح الدين ولو أن السلطان نفسه لم يرزأ منها شيئا ، دأبه فى ما كان يغنمه فى انتصاراته دائمـا .

وبعد أخذ عكا اندفع تيار النصر بازاء الساحل فأخذ المسلمون كثيرا من مدنها من يافا الى ما بعد بيروت واجتمعت فلول الجيوش الصليبية وجند الحصون الساحلية جميعها الى صور وهناك تحصنوا ووقفوا على أقدامهم مرة ثانية بعد أن جرفهم سيل الهزيمة، وأتى اليهم امداد من وراء البحر بقيادة من يسميه العرب (المركيش) وهو (كنراد دى منتفرات) فقوى ذلك عزمهم على الدفاع .

وكان صلاح الدين قد عقد النيـة على أخذ عاصمة الصليبيين (بيت المقدس) فبعد أن رأى ألوية النصر تخفق له على السواحل ورأى الثغور تنفتح لجيوشه بلا مقاومة غير مدينة صور التى بدأت تحصن وتتجهز، سار الى قلب فلسطين وأخذ كل ما كان بين بيت المقـدس والساحل من حصون الداوية وأوقف على البحر رجلا من كبار قواده على رأس أسطول لكى يمنع اتيان الفرنج الى الساحل قبالة القـدس وذلك القائد البحرى هو حسام الدين لؤلؤ المعروف بالشجاعة ويمن النقيبة . فلما أمن هذه الناحية من البحر ألقى الحصار على العاصمة وعرض على أهلها الصلح على أن يسلموا اليـه المدينة نظير تعويضهم أرضا يزرعونها، ولكنهم أبوا ذلك فاسـتعد لأخذ المدينة عنوة، وجعل يلتمس فى أسوارها نقطة ضعف يهاجمها حتى وجدها بعد فحص دقيق قضى فيه خمسة أيام . وكانت نقطة الضعف

التي اختارها جهة الشمال عند المكان المعروف بباب كنيسة صهيون. وكانت الجموع في بيت المقدس كبيرة والحماسة للدفاع ثائرة، فآثر صلاح الدين الاستعداد بما معه من قوة لأخذ المدينة سريعا قبل أن يفيق عدوه من الضربات التي توالت عليه منذ وقعة حطين، وقبل أن يأتي امداد متوقع من وراء البحر. فنصب المنجنيقات ونظم الرماة فوصلت جنوده الى الأسوار ونقبوا فيها ثغرات، وكانوا يظهرون في هجومهم من البسالة ما لا يعادله شيء غير بسالة المحصورين أنفسهم اذ كانوا يخرجون كل يوم على خيلهم يقاتلون مستبسلين. وكان الأمراء في جيشي المسلمين والفرنج سواء في الاقدام يحاربون في أول الصفوف ويبعثون في الناس الحماسة بمثلهم الحسن. وكان مقتل أحد الأمراء يدعو دائما الى ثورة في نفوس الجند يتردد لها صدى قوي في اشتداد لهيب الحرب. غير أن ذلك التصادم لم يدم أكثر من أسبوع واحد ورأى المحصورون أن لا أمل لهم في النجاة، فأرسلوا الى صلاح الدين يفاوضونه في شروط التسليم، فتمنع أولا وقال انه لن يرضى بغير أخذ المدينة عنوة ليفعل بالفرنج نظير ما فعلوه بالمسلمين يوم أن استولوا على القدس منذ نحو قرن، ولكنه عاد فرضي بالصلح بعد أخذ ورد طويلين، واتفق على شروط التسليم وأكبرها أن يدفع المسيحيون ضريبة عشرة دنانير عن الرجل وخمسة

عن المرأة واثنين عن الطفل، فمن أدّى ذلك فى مــدّة أربعين يوما خرج ونجا ومن لم يؤدّه صار أســيرا مملوكا . على أنه سمح لليونان وأهل الشام من المسيحيين ان يبقوا حيث هم بين رعاياه، وكذلك أباح للفرنج أن يقيموا فى فلسطين اذا شاءوا، وبدأ تسليم المدينة وخروج من يريد منها فى أكتوبر سنة ١١٨٧م. على أن صلاح الدين لم يصب مالا كثيرا من وراء فداء أسرى بيت المقدس فقد ذهب أكثره لأمراء الجند الذين وقفوا على الأبواب يراقبون دفع الضريبة ممن يخرج . وقد أطلق صلاح الدين عددا كبيرا من أهل المدينــة بغير فداء ومنّ على نحو ثمانية عشر ألف رجل نظير ثلاثين ألف دينار وزنها عنهم أمير من أمراء المسيحيين ، وبقى بعد ذلك عدد عظيم لا يســتطيع أن يعطى شيئا وكانوا نحو ستة عشر ألفا، فتســامح صلاح الدين تسامحا كبيرا فى أمرهم وكان كثير العفو عن نساء الفرنج وشيوخهم وأطفالهم خاصة، فأطلق للملكة بيت المقدس مالها وحشمها لم ينل من ذلك شيئا، وكذلك فعل بغيرها من كبيرات الفرنج ومن بينهن امرأة (ارناط) نفســه، وأكرم رجال الدين فخرج كبيرهم مع أمواله وتحف الكنائس وكنوز ذات قيمة عظيمة فلم يرض أن يتعرّض له بل أخذ منــه العشرة الدنانير المفروضة وسير مع الجميع من يحميهم الى مدينة صور .

وقد بلغ عدد من دفع عنهم صلاح الدين الفداء نحو عشرة آلاف نفس عدا من أطلقهم أخوه سيف الدين الكريم، ورأى جماعة من المسيحيين وهم خارجون يحملون على أكتافهم من يعجز عن السير لسنه أوضعفه، ففرق فيهم مقدارا عظيما من المال وحمل بعضهم على دواب من عنده . وقد أظهر صلاح الدين من التكرم ورقة القلب فى هذا الفتح ما يجعلنا نرى حقيقة نفسه واضحة فانه أبى أن يغدر بأحد من فرنج بيت المقدس ولو عظم الداعى الى الغدر وكان لا يعميه تعصب للاسلام عن الرحمة بمن كانوا فى صفوف أعدائه، بل كان يرحم المتألم وتأخذه الشفقة بالضعيف من امرأة أو طفل تجمعه به روابط الانسانية .

ولهذا يظهر لنا فى ذلك الموقف بطلا ينصر جانبا مظلوما على من اعتدى عليه ولم يكن بالقائد الأعمى المندفع الى القتل والعداوة بغريزة القسوة والحقد، فكان فى ذلك نقيضا واضحا لما كان عليه الصليبيون عند فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٧ م .

وبعد أن انتهى خروج من أراد الخروج من المدينة دخل بجيشه اليها منصورا وكان ذلك يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٢ هـ . وجعل يصلح ما أفسده الحرب والحصار وبدأ فيها الاصلاح بأنواعه فأعاد الأبنية الى أصلها بعد أن كان الصليبيون

حوّروا فيها بحسب أذواقهم وحاجات تعبدهم وأقبل على المسجد الأقصى فأرجعه الى حاله الأولى وجعل فيه منبرا كان قد أعدّه نور الدين محمود بعناية كبرى لينصب بالبيت المقدّس اذا فتحه « فكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة » ثم جعل يحسن المسجد وينمق فيه بأنواع النقوش والفرش بالرخام الثمين والتمويه بالذهب ثم أقبل على الاصلاح الاجتماعى جاعلا المدارس محل الأساس من البناء سيرا على سنته التى اتبعها فى مصر . وبعد أن قضى زمنا يسيرا فى الأعمال السلمية والاصلاح ذهب الى إتمام عمله فى الحرب فقصد الى صور .

٢٠ — حصار صور ورفعه وفتوح سنة ١١٨٨ م — ٥٨٤ ﻫ

كانت صور حصينة بموضعها وزادها منعة ما قام به المركيش (كنراد) من حفر الخندق حولها حتى أصبحت كالجزيرة ، وكانت مثل الكف أو الرأس بارزة فى البحر ويصلها بالساحل طريق كالعنق أو كالساعد وكانت الحرب عند ذلك العنق المتصل بالساحل من أشق الامور على المسلمين إذ كانت الجنود تحاربهم من المدينة أمامهم والسفن تحاربهم من البحر من جانبي العنق .

فرأى صلاح الدين أنه لا يستطيع أخذ المدينة إلا بمساعدة الأسطول فأرسل الى أسطوله المصرى لذلك الغرض، ولكن قلة عدد السفن التى أنت مكنت الصليبيين من هزيمة المهاجمين، وبذلك رأى صلاح الدين أن يترك حصارها، وكان هذا الخذلان مشدّدا لعزائم الفرنج بعد انهزامهم الكبير عقب حطين . وقد قضى الشتاء من عام سنة ١١٨٧ م فى راحة من الحرب فلما بدأ الربيع من عام سنة ١١٨٨ م كان عليه أن يعود الى الحرب وقد تنفس عدوّه راحة مدّة طويلة .

وفى أوائل سنة ١١٨٨ م — ٥٨٤ هـ . قام ببعض غزوات انتصر فيها انتصارات صغيرة وكانت نتيجتها زيادة تمكنه من الساحل ودخوله الى الاقليم التابع لأنطاكية، وكذلك زيادة تمكنه من الاقليم الواقع بين بيت المقدس والبحر، وكان لا يزال به بقايا حصون الداويه والاسبتاريه أبطال الصليبيين . وقد انتهى حرب أوّل سنة ١١٨٨ م بهدنة مع أمير أنطاكية (بوهمند) وهو أكبر الأمراء الباقين من دولة الصليبيين . وكان شرط الهدنة لمدّة ثمانية شهور نظير أن يطلق بوهمند من عنده من الأسرى . وكان غرض (بوهمند) أن تأتى اليه بعد تلك الفترة مساعدة من أوروبا كما كان غرض صلاح الدين التفرّغ للميدان الجنوبى، فذهب توا اليه لمساعدة

الجيوش المحاصرة لقلاعه وفتح أكبر ما بقى من تلك القلاع وهى الكرك والشوبك وصفد وكوكب . وكان صلاح الدين كلما فتح بلدا من تلك البلاد تسليما بغير حرب اذن لأصحابها بالرحيل عنها وكانوا جميعا يختارون مدينة صور . وقد لام كثيرون تلك السياسة وقالوا انها كانت غلطة من صلاح الدين وقصر فى النظر إذ مهد السبيل الى جمع عدد عظيم من المحاربين فى مدينة صور وبذلك خلق لنفسه قلعة حصينة معادية له على الساحل تستطيع مقاومته بمن رحل اليها ، ولكنا يجب ألا ننسى أنه عندما أوسع صدره لكل من يسلم وأباح ذهاب من أحب الى مدينة صور ، قد شجع أعداءه على التسليم بغير حرب وقلل بذلك من ضحايا القتال .

وكذلك يجب ألا ننسى أنه كسب بسياسته شيئا كبيرا وهو تطهير الداخل من أعدائه وحشدهم جميعا فى جهة واحدة على الساحل ، والحصون الداخلة فى البلاد لا شك أشدّ خطرا لو بقيت على المقاومة من حصون الساحل لأن الأولى تتخلل دولته وتهدّد كل حركاته . وأما حصون الساحل فيمكن الوقوف دونها ومنع من فيها من ولوج البلاد مع شيء من المراقبة الدقيقة ولا يستطيع قوم البقاء فى الساحل إلا مع استمرار الأمداد وتوالى النجدات من الخارج وهذا أمر لا يمكن بقاؤه الى الأبد إذ أن حماسة القوم لا بد تخبو

متى أدركوا أن موقفهم غير طبيعى ولا ينتظر منه نجاح. فكأنه كان واثقا أن دفاع صور لن يدوم بل لا بد من سقوطها متى طال عليها الزمن وانقطع عنها ما يكفيها من الأقوات والأمداد من الخارج ولعل هذا يبرر خطته التى يلوح على ظاهرها أنها كانت غير سديدة.

٢١ — الحملة الصليبية الثالثة

لقد مر نحو قرن على الهزة العظيمة التى اهتزتها أوروبا أيام البابا (أربانوس الثانى) وذهبت أجيال من الناس بعد من سمعوا خطابات الناسك بطرس يستفز الى تخليص بيت المقدس من المسلمين ونصرة الصليب. وقد أتى ذلك القرن الذى مرّ منذ تلك الأيام بتغير عظيم فى أوروبا فكانت الحياة الجديدة تتمشى فى شعوبها وكانت فوضى نظام الاقطاع تكاد تنجلى غبرتها عن حكومات جديدة وكانت عقول أهلها تستقبل العلم القديم الذى اندثر ودفن قرونا عدة وهى تحسبه شيئا جديدا فأخذت تتذوق لذته. ولكن مع كل هذا التغيير بقى فى أوروبا شىء كبير من الدافع الأوّل الى نصرة الدين. ونشأت منه حملة جديدة وهى المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة وانا لنلمح فيها أثر التغير الذى طرأ على أوروبا ولو أن الظواهر كلها تخدع وتفهم الناظر السطحى أن هزة أوروبا

فى أواخر القرن الثانى عشر هى نفسها الهزة التى اهتزتها من قبل فى أواخر القرن الحادى عشر .

ما كانت تنقضى سنة من القرن الثانى عشر منذ سنة ١١٠٠ م بغير أن ترد الى الشام وفود من الحجاج المتحمسين بعضهم رجل مسن أو امرأة عجوز أو طفل صغير وبعضهم شاب أو كهل يلتهب شوقا أن يجد الشهادة فى البلاد الطاهرة وهو يقتل المسلمين ، غير أن تلك الوفود ما كانت فى العادة تأتى للحروب قصدا بل كانت اذا وجدت حربا اشترك من يقدر من رجالها وشبانها فيها وكانت الحروب لا تفتر سنة واحدة لا سيما بعد أن نبغ عماد الدين زنكى أتابك الموصل ، وبدأ سيرة جهاد طويل استمر فيه ابنه نور الدين محمود وتلق من بعدهما سيف الجهاد صلاح الدين .

غير أن بعض الحوادث كانت تثير فى أوربا حماسة فوق المعتادة فعند أخذ الشهيد عماد الدين مدينة (الرها) ثارت فى أوربا ثورة أججها بعض نوابغ رجال الدين مثل القديس (سان برنار) وكانت نتيجتها حملة عظيمة يعدها التاريخ (الحملة الثانية) متجاهلا ما كان بين الحملة الأولى وبينها من وفود الحجاج والامداد العسكرية التى كانت كما قدمنا تفد بين حين وحين الى الشام . وكذلك ما حدث فى أواخر القرن الثانى عشر ، فقد كانت الجنود تتوالى فى مجيئها الى

الشام لنصرة جنود المسيح بالشام أو للأغارة على مصر بعد أن أصبحت قاعدة دولة صلاح الدين، ولكن التاريخ لا يسمى هذه الحملات والامداد بل يمرّ بها لا يعدها .

فلما سقط بيت المقدس فى يد صلاح الدين بعد وقعة حطين وما تلا ذلك من الانتصار على الساحل وفى الداخل، قامت قيامة من عويل واستصراخ فى أوروبا وأجج رجال الدين النيران كما كانت العادة دائما إذ كانوا أكثر الناس تحمسا للحرب وتخليص بيت المقدس من يد أعداء المسيح، وبالغوا فى استنهاض الهمم وإثارة النفوس حتى غضب للدين مئات الآلاف وقام على رأسهم أمراء وملوك وكانت على أثر هذا حرب عظيمة يسميها التاريخ الحرب الثالثة . ويحسن بنا أن نمر مرا سريعا على ذكر الوفود الكثيرة التى بادرت للنجدة آتية من بلاد مختلفة من بلاد البحر الأبيض المتوسط فى الجنوب الى بلاد الدانمرك والفلندر فى شمال أوروبا .

ولكن لا بد لنا من شىء من الاطالة عند ذكر ملوك ثلاثة جاءوا متأخرين بعد هذه الوفود يلبون دعوة المستصرخين، وهم الامبراطور (فردريك) المعروف بلقب (بربا روسا) أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ويسميه العرب ملك الألمان، والملك ريكارد (قلب الأسد) ملك انجلترة و يطلق عليه العرب اسم (الانكتير أو الانكتار أو الانكلتار)



صورة الانكتار (ريكارد ملك انجلتره)

(وفليب أوجوست) ملك فرنسا ويطلق عليه العرب اسم (الفرنسيس).
أما فردريك فقد كان امبراطورا على دولة عظيمة تشمل ولايات ألمانيا من الشمال وبلاد نهر الرين من الغرب وايطاليا من الجنوب وكانت فى بلاده مشاغل كثيرة أكبرها مسألتان عظيمتان الأولى نضاله مع أمرائه الاقطاعيين والثانية نضاله مع الرئيس الدينى وهو البابا . وقد نجح فردريك نجاحا لابأس به مع أمراء ألمانيا الذين كان نفوذهم قبل توليته زاد زيادة تضاءل الى جانبها سلطان الامبراطور، وبعد نضال دام سنين طويلة أمكنه أن يعلى اسم الحكومة المركزية ودان له أكبر أمراء الدولة . ولكنه لم يلق مثل هذا النجاح فى نضاله مع البابا فقد أدى النضال الى حرب كانت سجالا بين الجانبين وانتهى أمره بأن سوى الأمر وتصالح الرئيس الدينى مع الرئيس الدنيوى وكان من شروط الصلح أن يتفق الاثنان على من يعاديهما .

ولعل أكبر من كان عدوًا فى نظر البابا ونظر هذا العصر هو الاسلام حيث كان سواء فى الشرق أو فى الغرب فكان الامبراطور يحب أن يقوم الى حرب المسلمين لكى يعلى من شأن نفسه ويزيد من هيبته وسلطانه وكان البابا كذلك يحب أن تنصرف قوة الامبراطورية الى حرب دينية يصدر الناس ويردون فيها عن كلمته هو اذ كان لا يدفع ولا ينازع فى رئاسة الدين .



صورة الفرنسيس (فليب ملك فرنسا)

ألا يلمح الانسان فى هــذه الحــرب الصليبية دافعا غير الدين والحماســة له والاخلاص للجهاد فى سبيل المسيح ؟ أما لا نستطيع أن نتجاهل الفرق العظيم بين الحالة النفسية فى عصرى الحملة الأولى والحملة الثالثــة . فقد قامت الحمــلة الأولى تلبية لدعوة الكسيوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية وهو مخالف لغرب أوربا فى الدين ولكن حماسة العصر وفكرة الدين غلبت كل شىء فى سبيلها .

وأما الحرب الثالثة فلم تكن بنت حماسة مثل الحماســة الأولى بل دخلتها عناصر دنيوية أخرى .

وها نحن نرى للبابا غرضا من تشجيعها وللامبراطور كذلك غرضا غير وجه الدين والدفاع عنه .

وأما (الانكار) ريكارد فقد كان ملك انجلتره ولو أنه لم يقم فى تلك البلاد ويسميه قومه بالملك الغائب وكان من ســلالة امتزج فيها دمان الأول دم النرمان أبنــاء وليم الفاتح الذى غزا انجلتره فى القرن الحادى عشر والثانى دم الفرنسيين أمراء انجو .

وكان هناك فى ذلك الوقت نضال كبير بين ملوك انجلتره وملوك فرنسا على كثير من ولايات فرنسا كل منهما يدعى فيها حقا ولكن فى مدة (فليب أوجست) وريكارد بدأت كفة فرنسا ترجح وجعلت انجلتره تسير فى أول طريق نموها الطبيعى وهو تكوين قومية معزلة

فى جزائرها وانماء نظامها الدستورى تدريجا على يد أمرائها الذين بدؤا يعدون انجلتره بلادهم بعد أن كانت نظرتهم الى فرنسا أولا انها منشؤهم ووطنهم . وكان ريكارد من أشجع الناس على أنه كان من أغلظهم كبدا ولم يكن بالقديس ولا الذى يعبأ بأمر الدين كثيرا فذهب الى الحروب الصليبية محاربا بيده (بلطته) أو رمحه ومعه رماته وفرسانه وهم يلتمسون جميعا فى الشام النصر والمجد الذى التمسه أجدادهم فى ميادين أخرى . ولكن ميدان ذلك الوقت كان مع المسلمين فى الشام .

وأما (الفرنسيس) (فليب أوجست) فقد كان من سلالة الأسرة الفرنسية الكبيرة التى أولها (هيوكابيه) وقامت فى فرنسا على انقاض دولة أبناء (شارلمان) — وكانت مدة أسرة (هيوكابيه) يشغلها نضال دموى بين الأمراء الاقطاعيين وبين بيت الملك وكان الانتصار فى أول الأمر للأمراء حتى لم يكن للأوائل من بيت (كابيه) إلا ملك أسمى، ولكن بدأت الكفة ترجح الى جانب الحكومة المركزية وأخذ الملوك يزيدون من نفوذهم وملكهم حتى جاء فليب أوجست فكان من أكبر من عملوا على إضعاف شوكة الأمراء وزيادة نفوذ الملك . وكان انتصاره على أمرائه بفرنسا وعلى منازعيه ملوك انجلتره مما جعله من أكبر ملوك أوروبا الذين

توجه اليهم الدعوات اذا أزمة أزمت ولهـذا قام فليب الى نصرة الصليبيين بالشام بعـد أن هدأ له الأمر فى داخل بلاده . غير أنه ما كان ينظر الى الحرب الانظرة ملك عظيم يجب عليه ألا يتخلف عن مهمة تحرك لهـا غيره من العظماء ولن يلبث أن يعود الى بلاده التى كانت فى نظره محل أداء واجبه وليس بلاد الشام .

كل ذلك يظهر لنا أن الذين كانوا زعماء الحـرب الصليبية الثالثة لم يهبوا هبة مضطربة صاخبة مثـل هبة الحرب الأولى بل ساروا لغرض مدبر وقصد معين . كل يرمى من ناحيته الى هدف يبغى أن يصيبه .

على أننا لانقدر أن نقول أن الحماسة كانت غير متأججة فى نفوس المحاربين ، فان الحماسة بين عامة الجنـد كانت عظيمة ثائرة للجرح الجديد وهو الاستيلاء على بيت المقدّس وسواه من البلاد التى كانت للمسيحيين مدّة قرن ثم اسـتولى المسلمون عليها ولكن تلك الحماسة لم تكن بها شدّة الحماسة الأولى ولا حرارتها .

ولا يسعنا اذا رأينا ما تخلل تلك الحرب الثالثة من المداعبات بين المسلمين والمسيحيين ومن المزاح أحيانا . وما كان بين ملوك هؤلاء وأولئك من التقـدير والتفاهم أحيانا والاجلال المتبادل —

نقول لا يسعنا اذا رأينا ذلك الا أن نعد تلك الحرب ميدانا للسابقة بين الشرق والغرب كل يريد أن يظهر صلاحه وقوته فلم تكن كلمة اليوم بها مثل كلمة اليوم فى الحرب الأولى :

ليس بينى وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

٢٢ — أمام عـــكا

اجتمع من اجتمع من الفرنج فى صـــور وأوقف صلاح الدين تجاههم جماعة من رجاله يراقبونهم . وكان يعرف أنه قد ارتكب شرا بسماحه للفرنج أن يذهبوا الى صور من كل جانب .

ولكنه فى الوقت ذاته كان مضطرا الى ذلك بحكم السياسة، فكان ذلك فى نظره أهون الشرين — وما كان مخيرا الا بين هذا وبين أن يستبسل له كل حصن ويضيع عليه الوقت فى حصارات لا عدّ لهـــا . وعلى أى حال لقد أصبحت صور مجتمع بقية فرسان الصليبيين ، وزادهم قوة من انضم اليهم من وراء البحر . ولمـــا شعروا بقوة عددهم وان صـــلاح الديـــن لا يستطيع حصـــار مدينتهم جعلوا يخرجون بين حين وحين الى ما جاورهم من البـــلاد وكان صـــلاح الدين يدبر لهم الكمائن والبعوث تمنعهم من أن يفسدوا شيئا من بلاده، وأخيرا استقرّ رأيهم على أن يذهبوا الى عكا لاسترجاعها فيكون بذلك لهم ميناءان عظيمتان على الساحل الأوسط .

كان صلاح الدين عند حصن الشقيف فى الجبل ينتظر أن يأخذه فبلغه خبر سير الفرنج من صور نحو عكا . فظن ذلك خديعة منهم يريدون صرفه عن الحصن الذى هو دونه ، فتريث حتى عرف أنهم جادون فى السير نحو عكا . فأسرع بمكاتبة الأمراء ليأتوا اليه ، فاجتمع اليـه جيش عظيم وجمع مجلسا حربيا ليختار طريق السير ، أيساير الفرنج على الساحل ويقاتلهم قبل بلوغ عكا أم يلقاهم هناك على المدينة بعد أن يسلك طريقا فى الداخل مارا بطبرية ، فاختار أمراؤه الخطة الأخيرة فهى أهون ، وكان هو غير راض عنها لأن الفرنج متى تركوا آمنين حتى يصلوا الى عكا أمكنهم اختيار المكان اللائق والتحصن حولها فيصعب بعد ذلك حربهم . ولكنه على كل حال اتبع ما أقره المجلس على حسب عادته — فقـد كان رأى أمرائه أكبر من أن يهمله ، وكانت نتيجة أرغامهم على سلوك خطة معينة أخطر من أن يجربها ذلك السلطان العاقل ، فالحق أن سلطته كانت قائمة على قوة شخصه ونفوذه فى أمرائه أكثر مما كانت قائمة على سلطان دولة مركزية قوية .

وكان أول هم صلاح الدين عنـد بلوغه عكا أن يرسل اليها الامـداد بعثا وراء بعث قبـل أن يستفحل أمر حصار الفرنج لها .

وأصبحت المدينة بعد زمن قصير محصورة بالفرنج تحت ملكهم (كى) والأمير الكبير المركيش (كنراد) ونزل حول الفرنج من الخارج جيش صلاح الدين وكان البحر مفتوحا يمدّ الفرنج من جهة بما يأتى مع أساطيلهم ، ويمدّ المدينة خفية لأن أسطول الفرنج فى البحر كان عند ذلك أقوى من أسطول المسلمين .

وهكذا اجتمعت كل قوة الفرنج وكل قوة الدولة الاسلامية عند عكا فى أغسطس سنة ١١٨٩م شعبان ٥٨٥ ﻫ فكان ماحولها ميدانا واسعا فى البر والبحر ظهرت فيه من الجانبين آيات باهرة من الشجاعة والتضحية، وأتى الأفراد فى كلا الجيشين أجل أعمال البطولة الخارقة للعادة . حقا لقد كان سباقا عظيما بين الشرق والغرب وقد ظهر فيه كلاهما بمظهره الأسمى كل بحسب طبعه، وكان كلا الجانبين المتسابقين من جانبه جليلا .

واستمر النضال هنالك عامين حدث فى خلالها معارك كثيرة بعضها كبير وبعضها صغير الى أن جاء فليب ثم ريكارد فى ربيع سنة ١١٩١ م — ٥٨٧ ﻫ . فأصبحت قوة الفرنج أكبر من أن يغلبها صلاح الدين فآثر ترك المدينة اليهم فسلمت بعد قليل فى يوليه سنة ١١٩١ م — ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧ ﻫ . وقد تقلب ذلك النضال بين المتحار بين وحدثت فيه فترات، ولهذا يحسن تقسيمه الى

أدوار ثلاثة : الأوّل من أوّل الحصار الى هجوم شتاء سنة ١١٨٩م — ٥٨٥ هـ . والثانى من ربيع سنة ١١٩٠ م — ٥٨٦ هـ الى أوّل شتاء سنة ١١٩٠ م . والثالث من ربيع سنة ١١٩١ م — ٥٨٧ هـ الى سقوط المدينة .

٢٣ — الدور الأوّل للحصار

حدث ماتوقعه صلاح الدين — فعندما ذهب الى عكا كان الفرنج قد اختاروا مكانهم وحصروا المدينة حصارا تاما وكان عددهم ألفى فارس وثلاثين ألف راجل فكان هم صلاح الأوّل أن يجعل فى الحصار ثغرة يستطيع أن يصل بها الى المدينة بالجنود والأقوات حتى تقدر على المقاومة . وانفتح الطريق أخيرا الى المدينة بعد أن لقى صلاح الدين مشقة عظيمة من مقاومة الفرنج له . وكان كثير الاهتمام أثناء هذا حتى لقد بقى ثلاثة أيام بغير أكل إلا شيئا يسيرا . ولكن الفرنج جعلوا يعاودون الكرات حتى يتموا الحصار مرة أخرى فكانت المعارك تحدث كل يوم حول الأسوار ، وهنا نلاحظ أمرا يمكن أن ندرك منه روح الحرب بين الطائفتين فقد جعل الحرب بين جنود المسلمين والفرنج شبه تعارف ومودة — وما أغرب ذلك — فكانوا بين الهجمات العنيفة يضعون السلاح ويتحدث الجماعة من المسيحيين الى الأخرى من المسلمين . وقد يغنى البعض

ويرقص البعض . بل لقد كانوا يمزحون كما فعلوا مرة اذ أتوا بصبيين : أحدهما مسلم، والآخر مسيحى . ووقف الجانبان ينظران الى نضالهما حتى تغلب المسلم وقبض على أسيره المسيحى فافتداه بعض الفرنج المازحين بدينارين . وهكذا كان الناس من الطائفتين يقطعون بعض وقتهم فى فترات الحرب — أحقا كان فى هذه الحرب مرارة الجهاد وتجهم الحقد المتأصل فى النفوس وعبوس العداء الذى كانت تمتاز به الحرب الصليبية الأولى ؟

لسنا مبالغين اذا قلنا أن عصر الحرب الصليبية الحقيقية كان قد انقضى منذ أوائل القرن الثانى عشر ولم يبق إلا انضال دنيوى يدافع فيه المسلمون عن بلادهم ويحاول الفرنج أن يبقوها فى يدهم أباء وأنفة أن يكونوا مخذولين وحذرا من معرّة الهزيمة . وقد بلغ النضال أشدّه فى هذا الدور من الحصار بعد نحو شهر ونصف من البدء فيه فدارت رحى أشد معركة شهدتها أسوار عكا . وتقلب فيها الحظ بين الجانبين ولكن ثبات السلطان وإخلاص أهل بيته وشجاعتهم وانقياد أمرائه لأوامره — كل ذلك جعل النصر للمسلمين بعد أن قتل من الجانبين عدد عظيم — ولكن قتلى الفرنج كانوا آلافا قيل سبعة .

وبعد هذه الموقعة جمع السلطان مجلسا حربيا كعادته وكان يرى أن هذه الصدمة الأولى لابد تؤثر فى نفوس أعدائه فاذا تابع

الهجوم كان رفع الحصار عن عكا محققا ، ولكن أمراءه رأوا تفضيل الراحة بعد وقوفهم عند عكا نحو خمسين يوما فنزل على رأيهم وكان هـذا من غلطاته لأن الراحة أفادت الصليبيين أضعاف ما أفادت المسلمين . ولم يستأنف بعـد تلك الراحة قتال جدى فى هذا العام لدخول الشتاء فاكتفى صلاح الدين بادخال المؤن والرجال الى عكا ، وسرح جنوده لمدّة الشتاء الذى تكثر فيه الأمطار وتتعذر الحركات ، وتراجع بباقى الجيش الى الخروبة تخلصا من عفونة الميدان الذى حول عكا لما كان به من جثث القتلى . ولم يكن خالى البال فى أثناء راحته لأنه كان يتوقع مجئ الإمداد الى عدوه من أوروبا وكان كل يوم يتطاول به الحرب يزيد من توقع العجز عن رفع الحصار .

وكان أكثر ما يرد اليـه من أخبار الفرنج يدل على مسير ملك الألمان (فودريك برباروسا) فى جيش عظيم لنصرة الصليبيين .

٢٤ — الدور الثانى للحصار

بعد انقضاء الشتاء أرسل صلاح الدين الى أطراف دولته الواسعة يدعو أمراءه لاستئناف القتال فى الربيع من سنة ١١٩٠م — ٥٨٦ هـ فأتت اليه الكتائب يلى بعضها بعضا وجاءته مساعدات من الخليفة ببغداد . وقد استعد هذه المرة بالنفاطين والزراقين الذين يرمون النيران

والنفط على آلات الحصار . وقد أبلى فى ذلك الشأن بلاء حسنا شاب من صناع دمشق فانه أدخل من التحسين على صناعة النار ماجعلها تحرق آلات الحصار المنيعة التى كان الفرنج يطلونها بطلاء يمنع تعلق النار بها . وكان أشدّ الآلات على المدينة الدبابات وهى أبراج عالية ذات طبقات يركبها الجنود وتسير على عجل وفى مقدّمتها حديد قوى فتصطدم بالأسوار فتصدعها ثم يعمل الجنود المجتمعون بها فى الأسوار فيهدمونها .

وقد تمكن ذلك الشاب المجتهد من إحراقها باختراع سائل يرميه أوّلا فى قدور على هذه الدبابات المدرّعة ثم يقذف بعد ذلك النار فيلتهب ذلك السائل ولا يقاوم ناره شىء .

وقد تأخر وصول الأسطول المصرى الى ما بعد أن استؤنف القتال ولهذا وجد صعوبة فى الوصول الى الميناء ولم يصل اليها إلا بعد أن قام صلاح الدين بهجوم عام من الخارج فى البر ليشغل جنود الفرنج فيخفف بذلك الضغط عن البحر، فدارت معركة برّية بحرية فى وقت واحد وانتهت بانتصار عظيم ودخل الأسطول المصرى الى عكا محملا بالمؤن والمحاربين . وكان صلاح الدين يجد فى الحرب خاشيا من وصول ملك الألمان بالمساعدة المنتظرة ، ولكن لحسن حظه كانت حملة ملك الألمان غير موفقة .

فقد سار فردريك باربا روسا عن طريق البر من ألمانيا مخترقا بلاد المجر الى البلقان والقسطنطينية . وكانت تلك الخطة فى الواقع خطة غير ممكنة لأن سير جيش عظيم فى البر لا بد يؤدى الى احتكاك كثير مع الأهالى ولا سيما فى الدول التى يوجد فرق بين مذهبها الدينى وبين مذهب الغربيين وهذه عامة أمم البلقان .

فما زال الجيش يجد صعوبة بعد صعوبة حتى وصل أخيرا الى القسطنطينية وكان ملك القسطنطينية هذه المرة غير محتاج الى الصليبيين بل لقد كان يخشى زيادة اعدادهم عنده ويكره أن يجوسوا خلال بلاده — ولم يكن سلوك الجيش الألمانى سلوكا يطمئنه على سلامة بلاده فقد أوقعوا شيئا من النهب فيها وطلبوا منه كثيرا من الأموال كأنهم فى بلاد معادية . وكان عند (فردريك) نفسه سوء ظن بالامبراطور الشرقى وهذا ما جعله يطلب منه الرهائن على حسن نيته ، ولعل هذا يفسر لنا الخطاب الذى أنفذه امبراطور القسطنطينية (ايساكوس) الى صلاح الدين يذكر له كرهه للألمان وولاءه له . نعم لقد تغيرت الأحوال منذ تلك الأيام التى كانت القسطنطينية تطلب مساعدة غرب أوروبا على المسلمين أيام أثار (الكسيوس) نيران الحرب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر .

وبعد صعاب جمة عبر (فودريك) المضائق الى آسيا الصغرى وهناك لقي أشد الصعاب من التعب والجوع من جهة ومن المرض من جهة أخرى ومقاتلة فرسان مملكة الروم الاسلامية وملكها (قليج ارسلان) . وقد جاءت الضربة القاضية لذلك الجيش أخيرا إذ مات عميده الأمبراطور (فودريك) في نهر في شرق آسيا الصغرى قال جماعة مات غرقا ويقول متحمسو المسلمين أنه غرق في ماء لا يتجاوز علوه نصف علو الرجل لأظهار يد الله في الأمر . ويقول جماعة آخرون بل مات إذ نزل الى ماء النهر وكان شديد البرد ليستحم فيه عقيب تعب عظيم فمرض من ذلك وقضى المرض عليه .

سمع صلاح الدين أولا بالأخبار المريعة وهي اقتراب جيوش فودريك من بلاده عند وصولهم الى شرق آسيا الصغرى وبلاد الأرمن فاتخذ الحيطة وهو القائد الحذر، فأرسل جماعة كبيرة من أمراء جيشه ليرابطوا على منافذ الشام من الشمال، وحاول أن يهدئ الناس مما نالهم من الفزع لهذه الأخبار ولكنه حاول عبثا فبدءوا يخزنون الأقوات ويستعدون للشدائد ولكن ما لبث ان أتته أخبار الضعف الذي انتاب ذلك الجيش العظيم فتنفس الصعداء وفرح الناس بذلك وما زالت الأخبار ترده كل يوم بزيادة الضعف الى أن

عرف أخيرا أن فلول ذلك الجيش قد لجأت الى انطاكية وكانت البقية من الجيش العظيم ليست مما يحسب له حساب كبير .

وقد شعر الفرنج الذين حول عكا بنقص جنود صلاح الدين عند ما أرسل بعض أمرائه الى الشمال لحمايته من جيش (فودريك) فأحبوا أن ينتهزوا الفرصة وهاجموا الجهة التى نقصت جنودها نقصا كبيرا وهى ميمنة جيش صلاح الدين وكان عليها أخوه الملك العادل فدارت هناك معركة عظيمة تعرف باسمه وهى المعركة العادلية .

واستمر النضال أكثر النهار واشترك فيه المحصورون فى المدينة فانهم خرجوا على الفرنج من ورائهم أثناء المعركة فتم النصر بذلك لصلاح الدين وقتل من الفرنج عدد عظيم يقدره المسلمون بنحو ثمانية آلاف فكان هذا النصر من جهة وأخبار ضعف الجيش الألمانى وتشتته من جهة أخرى عاملين على فرح عام فى جيش المسلمين زادت له الروح المعنوية فى عكا مع أن الحصار كان قد أثر فى رخائها تأثيرا كبيرا وهذه . الموقعة العادلية أكبر مواقع الدور الثانى للحصار ولكن اذا كان الفرنج قد لحقتهم هذه الهزيمة فانهم احتفظوا بكثير من ثباتهم بقية الصيف ولا سيما وقد جاءتهم أولى مساعدات الصليبيين من غرب أوروبا بقيادة من يسميه العرب (الكند هرى) أو (الكونت هرى) وهو (هنرى دى شمبانيا)

قريب ملكى فرنسا وانجلتره فى آن واحد فما كاد صلاح الدين يفيق من الحلم المزعج بالخطر الذى كان يتهدده من قبل الألمان من الشمال حتى أتته طلائع الامداد العظيم الذى أرسلته أوروبا مجتمعة .

وبدأ الحصار يشتد مرة أخرى بعد وصول هذه الإمدادات وجعل الفرنج يقذفون أسوار المدينة بالمجانيق بقوة لم يسبق عهد بها غير أن شجاعة المدينة لم تفل أمام هذه الهجمات العنيفة فقد كان (بهاء الدين قراقوش) و (حسام الدين أبو الهيجاء) بين العسكر يوقدون فيهم الشجاعة بأعمالها وقدوتهما ، فكان المدافعون يخرجون بين حين وآخر فيوقعون بالمحاصرين وقعات ذات شأن بين أسر وقتل ونهب . وكان الزراقون والنفاطون دائبين على الدفاع بالنيران بهمة تعادل همة المحاصرين فى قذف المدينة من الخارج .

وقد ظهرت شجاعة الجانبين جليا فى آخر ذلك الدور ، واذا كان لا بد من التمييز بين الجانبين فلا بد من تمييز المحصورين لما بذلوه فى شدتهم من التفانى فى الدفاع والصبر وكان من الأفراد من يبذل جهدا خارقا للعادة فى أداء واجبه فكان بعضهم يعوم من المدينة مخترقا صفوف السفن الفرنجية الى أن ينفذ الى صلاح الدين فيحمل اليه الأخبار ويعود بعد ذلك يحمل ما يراد منه أن يحمله من رسائل أو من أموال يشدها حول جسمه ليمد بها المحاربين واذا كان بين عامة

الأفراد أبطال لا يسميهم التاريخ فقد سمى التاريخ بطلا من عامة أهل عكا أبلى بلاء عظيما فى أثناء ذلك الدور حتى قضى نحبه وهو يؤدّى واجبه وذلك هو عيسى العوام. واشتدّ الحصار بعد ذلك اشتدادا أعظم حتى صار التراسل غير ممكن إلا بالحمام الزاجل بين المدينة وجيش صلاح الدين ولكن مع هذا أمكن السلطان أن ينفذ الى المدينة بعض السفن بين حين وآخر محملة بالمؤن التى أصبحت المدينة فى أشد الحاجة اليها — ولكن كان دخولها المدينة بعد مشقة عظيمة اذ كانت قوة الفرنج فى البحر قد زادت بما انضم اليها من امداد أوروبا. ولعل الذى كان يمكن سفن المسلمين من دخول الميناء أنه كان هناك عند مدخلها برج عظيم اسمه برج الذباب مبنى على الصخر يحرس الميناء، فاذا عبرته المراكب أمنت غائلة العدو. فلما رأى الفرنج قيمته الحربية جعلوه همهم ودارت حوله معركة عظيمة بذل فيها الجانبان مجهودا كبيرا ولكن الفرنج عجزوا عن أخذه. وفى أثناء حصار برج الذباب وصلت بقية جيش الألمان بقيادة (المركيش) صاحب صور و (دوق سوابيا) ابن ملك الألمان فزاد القتال شدّة، واستمر هذا النضال بعد ذلك شهرين طويلين ظهرت فيهما نفس صلاح الدين وثباته رغم مرضه بحمى صفراوية. وقد تفشى المرض فى الجيش للوخم الذى أصاب الهواء بقرب عكا من كثرة القتلى، ولكن عزيمة

صلاح الدين كانت لا تفل وقد نصحه ناصح مرة أن يترك الميدان لما فيه من الخطر ثم يعود اليه بعد ذلك فتذكر السلطان الحازم خطأه السابق اذ انصرف عن العدو فى الدور الأول وقال لناصحه « اذا كان لا بد من الموت فليكن فهو على وعلى أعدائى » .

ثم تمثل وقال "اقتلانى ومالكا واقتلا مالكا معى" .

وجعل صلاح الدين يحتال على عدوه بتدبير الكمائن والهبوط عليه بين حين وآخر ولكن لم يجده ذلك وهجم الشتاء قبل أن يستطيع رفع الحصار عن المدينة . وهكذا اضطر أن ينصرف بقلب ثقيل عن المدينة وجعل يصرف جنوده للراحة مدة الشتاء وهو يشعر بأن المدينة قد حان أجل تسليمها . وقبل الرحيل انتهز فرصة هياج البحر وذهاب أكثر سفن الفرنج من تجاه ميناء عكا لاجئة الى الشاطئ فأدخل الى المدينة جماعة من الجنود والأمراء بدل من فيها ممن طال عليهم الدفاع واشتد التعب وأدخل معهم ما تيسر من المؤن والذخائر ولكن لم يكن الاقبال على دخول البلد كثيرا ولهذا لم يدخل من الأمراء والجنود عدد يعادل من خرج منها .

ولسوء حظ المدينة لم تستطع السفن الآتية من مصر بالمؤن أن تدخل اليها وذلك لشدة هياج البحر فغرقت وتكسرت وكان لذلك أثر كبير فى نفوس من فى المدينة وسيكون أثر هذا أعظم بعد

انقضاء الشتاء وعودة القتال واشتداد الحصار فان المدينة ستدخل على الدور الثالث من الحصار وليس بها من المدافعين ولا من المؤن ما يقيمها أمام هجمات عدوها العنيفة .

٢٥ — الدور الثالث للحصار

مضى على حصار عكا صيفان وشتاءان وجاء الربيع من سنة ١١٩١ م و (سنة ٥٨٧ هـ) . فأخذت جيوش صلاح الدين تجتمع اليه من كل أنحاء الدولة كما بدأ الفرنج يجددون إغاراتهم على المدينة ويشددون حصارها .

ولكن المدينة فى هذا الربيع لم تكن على مناعتها فى الدورين السابقين اذ كانت الأقوات فيها قليلة وكان المدافعون عنها أقل عددا وحماسة ممن كان فيها من قبل . وقد زاد الأمر شدة على المدينة مجيء أسطول فرنسي وآخر انجليزى يحملان جنود فليب أوجست (الفرنسيس) وريكارد (الانكتار) .

وقد جاء ريكارد متأخرا قليلا عن جيش الفرنسيس بعد أن أخذ فى سبيله جزيرة قبرص وكان معه خمس وعشرون قطعة كبارا من السفن .

وقد اجتهد الفرنج منذ أول هذا الدور فى طم الخندق الذى حول عكا ولكن أهل المدينة صبروا على المقاومة صبرا حميدا فكانت جماعاتهم يخرجون ما يلق فى الخندق ويلقونه فى البحر تحت حراسة اخوانهم ويجدون فى ذلك مع المشقة العظيمة . وكان صلاح الدين فى الوقت عينه يجد مشقة كبرى فى الهجوم على الفرنج لتحصنهم فى خنادقهم — ولهذا أمكن الفرنج أن يضيقوا الحصار على المدينة وصار من أشق الأمور ايصال شيء اليها من المؤونة .

ولكن لا بد من ذكر أحد البعوث البحرية التى أرسلها صلاح الدين إمدادا الى عكا وكان معها سمائة وخمسون رجلا ومقدار عظيم من المؤن والأسلحة فان المهارة الحربية فى البحر التى امتاز بها الانجليز كانت أكبر مما عهده جنود المسلمين من الفرنج فأحاط الانجليز بالسفن الاسلامية حتى كان لا مناص من استيلائهم عليها ولكن من فيها آثروا الموت فأهووا على جوانب السفن بالمعاول حتى ثقبوها وغرقت وغرق كل ما بها ومن بها وكان قائد هذه البعثة يعقوب الحلبى نذكره فخرا وإعجابا .

وقد بدأ ملك الانجليز بارسال الرسل الى السلطان منذ أول مجيئه يفاوضه فى قواعد الصلح ولكن شروطه كانت أشدّ مما يقبله

السلطان . فان الضعف اذا كان قد دب فى عكا فان دولة صلاح الدين كانت راسية الأساس متينة لا يستطيع مهاجم أن ينال منها شيئا ولهذا لم تنجح المفاوضات الأولى بل أصر السلطان على أن يظل على الحرب حتى يخضع له عدوه فى النهاية .

ولم يخل هذا الدور الثالث من ظهور آيات جديدة تدل على ما كان عليه صلاح الدين من الخلق ولنذكر قصة الرضيع مثلا لهذا وذلك أنه حدث فى بعض اغارات المسلمين أن استولى مسلم على طفل رضيع ، فطار عقل الأم وراء ابنها وخرجت الى معسكر المسلمين حتى وصل أمرها الى السلطان . فلما وقفت أمامه وعرف قصتها بكى رحمة لها وأمر برد ابنها اليها فالتمس حتى وجد بعد أن كان قد بيع فى السوق فدفع السلطان ثمنه الى المشترى وسلمه الى أمه وحملها على فرس وأعادها الى معسكر الفرنج .

على أن الفرنج وان زاد عددهم لم يكونوا على وفاق فقد كان فيهم رؤساء عدة كل منهم يحسد الآخر ويغار منه فكان هناك الملك القديم (جى دى لوسنيان) أو (كى) كما يسميه العرب وكان معهم المركيش صاحب صور وجاء بعد ذلك فليب وريكارد .

وكان أول من ثار من هؤلاء الرؤساء المركيش فانه هرب من صفوف اخوانه عائدا الى صور وهناك تنحى عن الميدان حتى قتل كما سنذكر بعد .

وكان صلاح الدين فى هذه المدة كثير الألم لما يراه من الضيق الذى أحاط بالمدينة حتى كان لا يأكل إلا قليلا لهمه وغمه . وبدأت ترد اليه رسائل من المدينة يشكو من فيها الضيق والشدة وذلك بعد نحو شهرين من بدء الحرب فى هذا الدور اذ كان الفرنج قد نجحوا فى أخذ الخنادق التى حول المدينة وعملوا تلا مستطيلا من التراب يحتمون وراءه ، وجعلوا يقربون من أسوار المدينة حتى أصبحوا بجوارها ولم يقدر السلطان على مساعدة المدينة مساعدة كبرى مع محاولته ذلك بكل ما استطاع ، فلم يجد من فى المدينة بدا من مفاوضة الفرنج فى التسليم بعد نحو ثلاثة أشهر من تجدد الحرب وكانت شروط الصلح أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والمراكب وأن تدفع نظير الأسرى المسلمين مائتى ألف دينار وتطلق ألفا وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى الفرنج ومائة فارس معينين وأن يرد صليب الصلبوت — وأن يخرج جميع من فى المدينة سالمين بما معهم من الأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم ولكن تلك الشروط لم تنفذ كلها كما سيأتى .

وهكذا سلمت المدينة للفرنج فى ١٢ يوليه سنة ١١٩١ م (١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ) بين حزن الجنود الواقفة فى الخارج

وألم السلطان الذى كان أشدّ الناس شعورا بتلك الصدمة، وتهليل الفرنج لما نالوا من نصر بعد عامين قضوهما فى حرب مهلكة عند أسوار تلك المدينة .

٢٦ — عدم انفاذ المعاهدة وقتل المسلمين بعكا

كان ميعاد بذل المال فداء الأسرى شهرين — فبعد أن سلمت المدينة كان هناك جانبان كل منهما يشك فى نية الآخر فالفرنج وقد أخذهم زهو النصر لا يريدون أن يسلموا شيئا من أسراهم حتى يتأكدوا من المال ، والمسلمون وقد وخزهم الانهزام يريدون ألا يزيدوا عدوّهم قوّة بالمال المشروط إلا اذا تأكدوا من أنهم يطلقون الأسرى المسلمين . وهكذا بدأ الصليبيون بالإحتياط فحبسوا المسلمين الذين فى عكا ممن يجب فداؤهم .

وأما المسلمون فبدءوا فى تحصيل المال وعرضوا أخيرا أن يسلموا منه النصف بشرط أن يضمن الداوية (فرسان المعبد أو التمپل) اطلاق الأسرى عند تمام دفع المال لأنهم كانوا أهل دين ومحافظة على العهد يعرفهم المسلمون بذلك . فأبى الداوية أن يضمنوا ، وقال الفرنج انهم يصرون على دفع المال كله ولهم بعد وصوله أن يطلقوا من شاءوا و يحفظوا من شاءوا . فشك صلاح الدين

فى نيتهم وانهم يريدون وصول المال ليتقووا به ثم يطلقون الفقراء والصغار ويحتفظون بالأمراء والأغنياء ليصيبوا من وراء ذلك غنما جديدا يتقوون به ولهذا أبى أن يسلم المال الذى جمعه .

ثم استمر القتال بين الفريقين بعد أخذ الفرنج عكا وما كان أشد دهشة المسلمين عند ما رأوا بعد القتال جثث أسرى عكا وقد قتلهم الفرنج وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف رجل وذلك فى أغسطس سنة ١١٩١ م ولم يبق من الأسرى إلا الأمراء والأغنياء . وعلى ذلك لم يرسل السلطان المال ولا الأسرى الفرنج ولا الصليب .

وانا لا نقدر أن نشدد النكير فى اللوم على الفرنج على ما أتوه ، فلا نستطيع أن ننسب ذلك الى التعصب والكره والحقد كما يذهب جماعة من المؤرخين بل نرى ذلك نتيجة لسوء فى التفاهم بين الجانبين فى وقت كانت العداوة ثائرة والنفوس متألمة بعد قتال عنيف استمر سنتين عند أسوار المدينة وكان ذلك النصر بعد الهزائم المتكررة دافعا بطبيعة الأمر الى ارتكاب ذلك الشطط .

على أننا لا نتمالك الاعجاب بصلاح الدين واعتداله وحكمه لنفسه اذ أرجع أسرى الفرنج الى دمشق سالمين مع شدة غضبه وحنقه على من نقضوا العهد ولم يأخذهم بجريرة اخوانهم .

٢٧ — الحرب الأولى بعد أخذ عكا

قد كان لأخذ عكا أثر أدبي كبير فوق ما كان له من أثر مادّى فى تقوية الفرنج وتخذيل المسلمين فان الصليبيين ساروا بعد أخذها منتصرين وخشى المسلمون بأسهم فكانوا يفرّون فى أكثر مواقف اللقاء ولولا ثبات صلاح الدين نفسه وأخيه العادل وبعض كبار الأمراء لكان الخطب أعظم — وكان قائد الفرنج بعد أخذ عكا فى أكثر الوقت ريكارد وذلك لأن فليب ملك فرنسا عاد الى بلاده عقيب أخذ تلك المدينة ولعل من أسباب عودته ما كان بينه وبين ريكارد من الخلاف والمنافسة .

سار ريكارد الى الجنوب على رأس الجيوش الصليبية قاصدا أخذ بلاد الساحل، ثم اذا اطمأن له ذلك نفذ الى الداخل ليستولى على بيت المقدس .

وسار صلاح الدين وأمراؤه بازائهم ولكن المسلمين كانوا يسبقون الى الجنوب مسرعين على حين كان الفرنج يتريثون فى سيرهم إما لانتظار المدد من وراء البحر وإما للخوف من الكمائن . ولم يحدث قتال يستحق الذكر إلا عند أرسوف ١ سبتمبر سنة ١١٩١ م شعبان سنة ٥٨٧ ﻫ . وهناك انهزم المسلمون هزيمة كبرى ولولا ثبات

صلاح الدين فى القلب مع جماعة قليلة ، ولولا أثره الشخصى فى تحميس الجنود أو أشعارهم الخجل من فرارهم لكانت موقعة أرسوف نكبة من أكبر نكبات هذه الحرب . ولم يستفد الفرنج من انتصارهم عند أرسوف اذ كانوا دائما يحسبون فرار المسلمين خديعة ويحسبونهم قد أكمنوا لهم الكمائن — وزاد فيهم هذا الاعتقاد عند ما رأوا فى القلب جماعة ثابتة والكؤوس تضرب وسطها وهى الجماعة الملتفة حول السلطان .

ولما رأى صلاح الدين ضعف الحالة المعنوية فى جيشه جمع أمراءه عقب الموقعة ليروا رأيا فى الخطة التى يجب اتباعها فقرروا أن يتركوا الساحل للفرنج ولا يحاولوا المدافعة فى مدينة من مدنه . ولكنهم قرروا تخريب المدن الجنوبية القريبة من حدود مصر حتى لا يتحصن الفرنج بها اذا أخذوها فيكونوا خطرا على المواصلة بين مصر وبين ميدان الشام وتقرر البدء بتخريب عسقلان . وقد تألم صلاح الدين أكبر ألم لذلك اذ قال لأحد ثقاته «والله لأن أفقد أولادى بأسرهم أحب الى من أن أهدم منها حجرا واحدا ولكن اذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان» .

وقد بدأ هدم المدينة بعد قليل وسط آلام الناس جميعا وكان صلاح الدين يسرع بتدميرها قبل أن يعلم الفرنج بأمرها خوف

أن يسرعوا اليها فيأخذوها قبل اتمام ذلك الغرض ويعيدوا حصونها فتكون لهم بها قوة ومنعة .

وكانت تلك الخطة فى الحقيقة خير ما يمكن فى تلك الظروف اذا نظرنا الى ما كانت عليه النفوس فى جيش صلاح الدين بعد صدمتى عكا وأرسوف . وقد اتبع صلاح الدين خطة التدمير والهدم نفسها فى اللد وقلعة الرملة وذهب فى أثناء ذلك الى القدس يزيد من تحصينه وتجديد أسواره فكان غرضه ظاهرا من أعماله وهو أن يدع الساحل للفرنج ويقوى الداخل عالما أن أعداءه أقوياء قرب البحر وأن فرصته إنما تكون اذا هم بعدوا عنه متوغلين فى الداخل .

واستولى الفرنج فعلا بعد قليل على كل مدن الساحل وحاولوا أن يعيدوا حصون عسقلان وسواها مما خربه السلطان وبدؤا يفكرون فى غزو الداخل ولكن فى هذه الأثناء دب خلاف جديد بين المركيش (كنراد دى منفرات) وبين الانكتار (ريكارد) وجعلت رسل كل منهما تفد الى صلاح الدين أو الى أخيه الوديع الملك العادل تطلب الصلح، وقد أدرك (ريكارد) أن الاستمرار فى الحرب غير ممكن وأنه إن أحرز نصرا مرة أو مرتين فلن يقدر على طول النضال ولهذا أراد أن ينتهز فرصة ضعف الروح فى الجيش

الاسلامى ليفوز بشروط رابحة — فكانت رسل المركيش تأتى عارضة شروطا للصلح ورسل الانكتار تأتى عارضة شروطا أخرى كما يفعل المتنافسان وكان الملك العادل هو السفير فى المفاوضات فى أكثر الأحيان .

وكانت شروط المركيش أن يكون له صيدا وبيروت على أن يكون حليفا للسلمين ضد الفرنج .

ولكن صلاح الدين كان غير واثق من صدق نيته فاشترط عليه أن يبدأ بحرب الفرنج ومهاجمة عكا قبل أن يصالحه .

وأما شروط الانكتار فقد كانت الاستيلاء على القدس وإرجاع الصليب وأخذ البلاد التى بين نهر الأردن والساحل وأن يكون تحالف بين الدولة الاسلامية والصليبيين ويتزوج الملك العادل بأخت الانكتار ويكونا معا حاكمين على الدولة الجديدة بمقتضى المعاهدة ، ولكن تلك الشروط لم ترق أحدا من الجانبين .

والظاهر أن الجنود الاسلامية بدأت تسترجع قواها بعد شهرين من سقوط عكا وبدأت تقف ثابتة وتحرز بعض النصر فى مواقف الحرب وبدأ الانكتار يرى الحقيقة التى كان انتصار عكا أخفاها عن عينه وهى أنه ليس من الطبيعى أن ينتصر فى بلاد بينها وبين مقر دولته سفر طويل فى البحر ، ويكون النصر على قوم فى وسط

بلادهم تجدّد قوتهم بعد حين اذا ضعفت وتأتى الى ميدان النضال فيها كتائب تحل محل من قتل ومن أسر . ولهـذا بدأت المفاوضة من جديد وكانت الشروط هذه المرة ألين وأهون . ومما يسترعى النظر أن المفاوضـة بين الجانبين كانت تتخللها فكاهات ومداعبات وهدايا ومجاملة فيحمل الملك العادل من طعام المسلمين وتحفهم الى الانكتار ويحمل الانكتار من طعام الانجليز وتحفهم . حتى اذا ما اجتمع الاثنان تجاذبا أطراف الحديث من سمر ودعابة وفكاهة ينسى الانسان معها أن هذه مفاوضة فى حرب مرة ثار لهيبها طول قرن لم يخب ولم ينطفئ — حتى لقد نشأت شبه محبة بين العادل ور يكارد واستمرت الى أن انتهى الأمر بالصلح أخيرا .

وكان صلاح الدين فى أثناء كل هـذا لا يرغب رغبة حقيقية فى الصلح على تلك الشروط فكان لا يرضى بدون خروج الفرنج من جميع البـلاد ولكنه كان يرضى بدخول أخيه فى المفاوضـة لكى يضرب جانب المركيش بجانب الانكتار ويحدث له من وراء ذلك الربح والفوز ولعله كان أميل الى المعاهدة مع المركيش لأنه كان يرى أن شروطه أهون شرا وأنه اذا بقى فى بلاد الساحل فلن يكون شديد الخطر بل يسهل طرده منها بعد حين . ولكن الأمراء رأوا أن الصلح مع الملك (الانكتار) أتم وأضمن للسلم لقوته وشجاعته ..

وقد دخل شتاء سنة ١١٩١ بغير أن يتم صلح مع أحد الجانبين . فرجع صلاح الدين الى الداخل وعاد الانكتار الى عكا على أن المفاوضات لم تنقطع بين المسلمين وطائفتى المركيش من جهة والانكتار من جهة أخرى . وقد أراد صلاح الدين أخيرا أن يبرم الأمر على ما يراه هو وأن يصالح المركيش إذ رأى أن الصلح معه يضعف الفرنج فاذا تم له النصر أخيرا على الانكتار سهل عليه أمر المركيش . ولكن ما لبث أن سمع بنبأ قتل المركيش فى صور قتله اثنان من أصحابه على قول جماعة ويقول آخرون بل قتله اثنان من الفدائيين من طائفة الباطنية الاسماعيلية . ويعتقد الجميع أن قتله كان بدس من أعدائه ولكن هناك خلافا فتقول طائفة أنه قتل بايعاز صلاح الدين ويقول آخرون بل قتل بايعاز الانكتار ولكن مهما يكن من الأمر فان صلاح الدين لم يدس على المركيش من قتله وذلك لعدّة أسباب يكفى أحدها أن يكون برهانا قاطعا . فان صلاح الدين لم يكن رجل الدسيسة والغدر — حقا كان يجاهد ويحارب ولكنه كان يحارب فى الميدان المفتوح واثقا من النصر إذ كان يرى الحق معه ولم تكن فى حياته شبهة من غدر أو خيانة . وكذلك لم يكن صلاح الدين على وفاق مع الاسماعيلية بل أنه كان موتورا منهم لسابق اعتدائهم عليه . ولئن كان لصلاح الدين غرض

فى الغدر فكان الأولى به أن يغدر بعدوه الأكبر ريكارد وكانت فرص الغدر به كثيرة لو شاء وما كان أقرب اليه اذا كان رجل غدر أن يدس على (ريكارد) من يقتله أثناء اجتماعه بأخيه للمفاوضة أو يدس له السم فى الطعام الذى كان يأكله من يد المسلمين آمنا . وهل يتهم صلاح الدين وهو الرجل الذى كان يرسل لعدوه الدواء وهو مريض بأنه يدس على عدو آخر من يقتله .

وقد رأينا أن صلاح الدين كان أميل الى مصالحة المركيش وانه كان يرى المصلحة فى الاتفاق معه ليكون مساعدا له على الصليبيين فكان من مصلحته أن يبقى حيا وليس أن يدس عليه من يقتله فى الوقت الذى كان قد استقر رأيه فيه على مصالحته وتفضيل التعاهد معه على مصالحة ملك الانجليز .

فيلوح لنا أن الحقيقة هى أن (ريكارد) صاحب الدسيسة كما أقر القاتلان نفساهما . وأن قتله كان على يد اثنين إما من المسيحيين المتحمسين وإما انه استأجر اثنين من الاسماعيلية وقد تنكرا فى زى المسيحيين لهذا الغرض . ومن السهل أن نتصور الباعث على قتله فان المركيش كان فى نظر الصليبيين خائنا خارجا على الدين مواليا لأعداء المسيح ثائرا على أوليائه .

٢٨ — الميـــدان الأخير

دخل ربيع سنة ١١٩٢ م — ٥٨٨ هـ فاجتمع الجنود المسلمون الى صلاح الدين ولم يجتمع الى ريكارد إلا فلول جيشه القديم وقد خبت ثورة النصر الذى أحرزوه فى العام المنصرم إلا أنه كان لايزال على عزمه فى خطته الأولى وهى أن يدخل الى بيت المقدس بعد الاستيلاء على الساحل الجنوبى فلما تم له أخذ الساحل فى العام الماضى جعل غرضه من حرب هـذا العام الاستيلاء على بيت المقدس فما زال يسير من منزلة الى منزلة وجنود صلاح الدين بأزائه وكان السلطان قد حصن بيت المقدس وقسم أسوارها على أمرائه مصمما أنه لن يترك عدوه يستولى على تلك العاصمة كما استولى على عكا ولهذا أخذ أمر الدفاع عنها فى يده . ووصل الفرنج أخيرا عند موضع اسمه بيت نوبه على مرحلة من بيت المقدس وهناك بدءوا يترددون ثم وقفوا . ولم يحـدث فى وقوفهم هناك أكثر من نهب قافلة عظيمة كانت آتيـة من مصر بالذخيرة ويقال ان عدد جمالها كان سبعة آلاف جمل فاستولى الفرنج على ثلث منها وتشتت منها ثلث فى البرية ووصل الثلث الأخير الى الكرك محتميا بها .

ولكن هـذه الخسارة لم توقع الرعب فى قلب صـلاح الدين بل زادته تصميما على الدفاع واعدادا لعـدّته فبالغ فى تحصين

بيت المقدس وأفسد الماء الذى فى ظاهر المدينة وكان فى هذه الأثناء شديد الوجد كثير الدعاء لله بالنجدة يتخلل دعاءه البكاء وما كان أشدّ دهشة المسلمين بعد هذا كله اذ سمعوا بعودة الفرنج الى الساحل . ولعل سبب رجوعهم ما سمعوه من استعداد صلاح الدين لهم وكان عدد جنودهم غير كاف لاتمام حصار المدينة من كل جانب لا سيما والمدينة يحيط بها واد منخفض من أكثر جهاتها، وهذا يدعو الى تشتيت القوّة المحاصرة .

وكان الفرنج يخشون التشتت لعلمهم بأن المسلمين اذا هبطوا على جماعة وحدها قضوا عليها ثم عادوا الى الأخرى وهكذا .

وقد فرح المسلمون أشدّ فرح بعودة الفرنج عنهم وتشدّدت عزائمهم وبدأت أحاديث الصلح بعد ذلك تتردّد وكانت شروط ملك الانجليز هذه المرة صالحة لأن تكون أساس المفاوضة . وهى أن يترك ريكارد البلاد الساحلية لابن أخته الكندهرى (الكونت هنرى دى شمبانيا) على أن يكون تحت حكم صلاح الدين وأن يأخذ الفرنج كنيسة فى بيت المقدس .

فرضى صلاح الدين باعطاء كنيسة القيامة بالقدس وابقاء مدن الساحل فى يد الفرنج إلا عسقلان وما وراءها فتكون خرابا ليست لأحد من الجانبين وأن تكون كل القلاع الجبلية للمسلمين وجعلت

المفاوضة تسير بين الطرفين سيرا متردّدا طول مدّة الصيف ويختلف الطرفان على تفاصيل قليلة الخطر .

وتخللها انقطاع وحرب وكان ميدان ذلك الحرب عند يافا . فأخذها صلاح الدين بعد حصار قصير . وكان ريكارد فى هذه الأثناء ذاهبا الى الشمال نحو بيروت فلما سمع بحصارها عاد مسرعا اليها فى البحر وهناك ظهرت شجاعته العظيمة التى كان لها أكبر أثر فى نفوس المسلمين . فانه لم يكن معه إلا عدد قليل ولكنه مع ذلك استطاع تنجية القلعة وهرب من اسمه الجيش الكبير الذى كان فى يافا . وقد تحدى ملك الانجليز فى اليوم التالى كل جيش المسلمين آخذا رمحه حاملا من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض أحد له حتى غضب صلاح الدين وأعرض عن القتال وانصرف عن يافا الى الرملة مع أن ريكارد لم يكن فى أكثر من ثلثمائة مقاتل .

وقد مرض ريكارد بعد ذلك مرضا شديدا واشتهى الكمثرى والخوخ والثلج فكان صلاح الدين ينفذ اليه بما يطلب من ذلك . ولعل ذلك من أكبر ما يقوم دليلا على تقدير البطل للبطل ولو كان عدوه .

وعزم الجنود الفرنسيون عند ذلك على العودة الى بلادهم ليلحقوا بملكهم الذى سبق رحيله فاشتدت رغبة ريكارد

فى الصلح وكانت عقـدة الاتفاق عسقلان فان ملك الانجليز كان مصرا على أخذها محافظة على كرامته فى الصلح وكان صلاح الدين يأباها عليـه اباء شديدا خوفا على مصر منها ومحافظـة على كرامتـه فى الصـلح أيضا اذ كان أخذها عنوانا للنصر فى تلك الحرب التى لا يستطيع جانب فيها أن يدعى النصر غير مدافع -.

وأخيرا تم الصـلح صلح الرمـلة فى ٣ سبتمبر سـنة ١١٩٢ (٢٢ شعبان سنة ٥٨٨) وحلف عليـه من الفرنج جماعة الأمراء والملك الذى سيتخلف بالشام وهو (الكندهرى) ولم يحلف الملك (ريكارد) قائلا ان الملوك لا يحلفون ولكن كلمتهم تكفى . وحلف من المسلمين الملك العادل أخو صلاح الدين والملك الأفضل والملك الظاهر ابناه وجمـاعة من أمرائه الكبار وكانت شروط الصلح أن يحتفظ الفـرنج بالساحل من عكا الى يافا وأن يسـمح للحجاج أن يزوروا بيت المقـدس وأن تخرب عسـقلان ويكون الساحل من أولها الى الجنوب لصلاح الدين .

ودخل فى ذلك الصلح أميرا طرابلس وأنطاكية على أن يحلفا للسلمين فان لم يفعلا لم يدخلا فى الصلح .

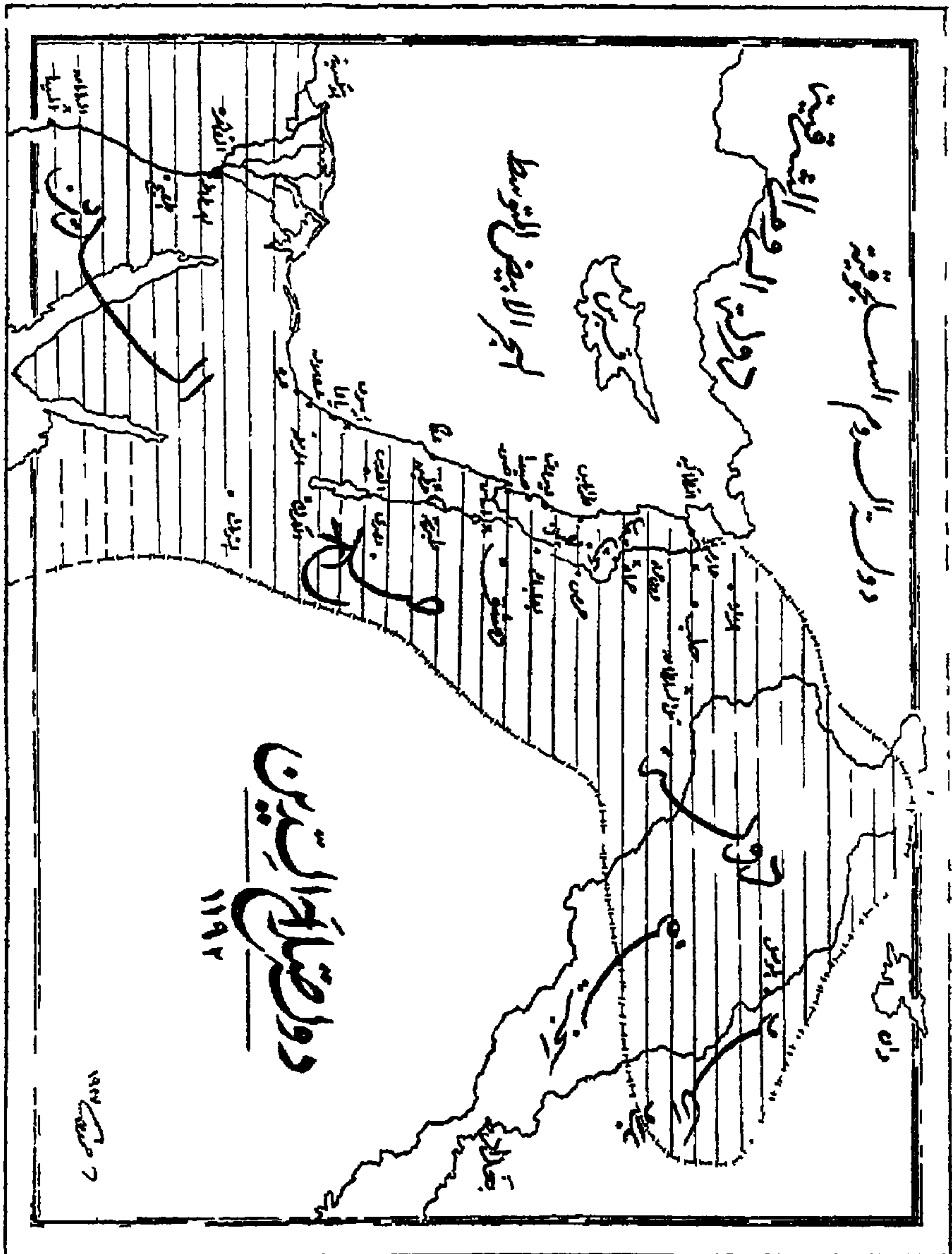
وهكذا تم الصلح ووفدت وفود الحجاج المتحمسين الى القدس فأكرمهم صـلاح الدين إكـراما عظيما وعاد ريكارد الى بلاده

وانصرفت الجنود الاسلامية عائدة الى أوطانها المختلفة بعد تلك الحرب الضروس التى لم يخب لهيبها مدّة قرن، فمات فيه من مات من الفرنج فى سبيل غرض دفعتهم الى قصده حماسة غير موفقة وساقهم الى تلك الحماسة جماعة كان أكثرهم يسرّحسوا فى ارتفاء[1]، ومات من مات من المسلمين فى دفاعهم المجيد عن أوطانهم يقودهم شيوخ من كرامهم رأوا ذلك الجهاد خير ما يقضى فيه عمر الأحياء. وما الحياة؟ أليست تلك الأنفاس التى تتردّد فى تلك الفترة المحتومة ما بين واجب الميلاد وواجب الموت؟ ألا أنها لفترة مملة مسئمة اذا لم يكن بها ما يهز النفوس — ولئن كان هذا كذلك فلقد اختار مسلمو ذلك العهد ذلك الجهاد سلوة يقطعون عليها حياتهم ولقد كانت سلوة جديرة بكرام الرجال .

وأما عمل صلاح الدين فى ذلك فانه قد جمع الدولة الاسلامية بين يديه وكانت عندما دخل الميدان لا تعدو عاصمتين من عواصم الشام والجزيرة وما بينهما من الأرض وكان ما عدا ذلك فى يد الفرنج أو الفواطم .

فلما مات كانت دولة واحدة من الدجلة الى النوبة الى برقة وما زال بالفرنج حتى حصرهم على الساحل فى الرقعة الضيقة بين

(١) مثل يضرب لمن يظهر أمرا ويخفى غيره .



خريطة دولة صلاح الدين

عكا ويافا . واذا قلنا أن ذلك عمل صلاح الدين فما ذلك إلا لأنه لولاه لما تم ولظلت دولة الفرنج قوية بل لزادت قوة .

٢٩ — آخر حياة صلاح الدين

أقام صلاح الدين بالقدس حينا بعد الصلح لكى يصلح من أمرها على حسب سنته وأقام بها المدارس والمستشفيات ثم خلف بها صديقه القديم عز الدين جورديك وسار يتفقد أحوال البلاد الشمالية ويقابل الأمراء لا يفرق بين صاحب أنطاكية المسيحى وأصحاب نابلس وطبرية وصفد المسلمين . ثم دخل دمشق وكان دخوله اليها دخول المنصور الموفق . واستقبلته تلك المدينة المحبوبة استقبالا عظيما جمعت فيه تقدير عظمته وحب كرمه وخلقه العظيم وجاءت اليه وفود الناس من أهل دنيا وأهل دين واجتمع له الشعراء والأدباء يقصدونه بالمدح فكان وجوده بالمدينة سلسلة من الأعياد والأفراح . ووافاه هناك أخوه وأولاده وكان يقصد أن يعود الى مصر من هناك ولعله كان يقصد أن يجعلها مركز دولته الجديدة ويأخذ فى تنظيمها واعلاء شأنها ولكن جماعة يقولون انه انما كان يقصد الراحة قليلا ثم يعود الى القتال فى آسيا الصغرى وبلاد فارس . على أنه قد بقى فى دمشق أطول مما كان عازما عليه فى أول الأمر فقد كانت دمشق معهد صباه الأول وكانت

أحب البلاد اليــه وقد استهواه فيها الصيد فخرج يقضى منه وطره وينعم بلذة الرجولة فيه . ويتفرّج فى أرض الظباء فى سهوبها مدّة الشتاء وكان يجلس فى أكثر أوقات الفراغ فى وسط أولاده الصغار وأصدقائه المقربين وقد رفعت عنهم الكلفة وسادت المباسطة . وفى أثناء تلك الراحة حدث له كسل فكان لا يكثر من الخــروج الى العمل الرسمى بل يؤثر البقاء فى خلوته .

ولكنه لمـا رجع الحجاج خرج الى لقائهـم وعند ذلك اجتمع الناس لرؤيته وكان فى لباس بسيط ليس عليه درع ولا وقاء وكان يرغب فى الحج ولا يجد فرصــة لذلك وسط حروبه ومشاغله فكان لذلك تأثره عظيما عند ما رأى المقبلين منه . ثم عاد بعد ذلك الى دمشق سائرا بين البساتين ليتحاشى الجموع الكثيرة المصطفة لرؤيته ولعل ذلك كان برأى الذين حوله اذ خشوا عليه من شر يحدث له فى وسط الجموع وليس عليه ما يقيه .

ومرض بعــد عودته الى دمشق بحمى صفراوية وانتابه أرق شديد فى الليل ولزم الفراش نحو أحد عشر يوما ومات فى الثانى عشر من مرضــه وكان ذلك فى السابع والعشرين من صفر لعــام تسع وثمانين وخمسمائة ويوافق ذلك ٤ مارس سنة ١١٩٣ ميلادية .



صورة قبر صلاح الدين

وكان حزن الناس لموته لا يوصف فقد كان العامة يرون فيه السلطان العادل، والجند يعرفونه القائد المنصور، والقادة يعرفون فيه الرجل العظيم، والعلماء يعرفون فيه التقوى والوداعة والايمان، والأدباء يذكرون ما نالهم من بره وتقديره لمواهبهم . فكان يوم موته مأتما عاما لامراءاة فيه ولا مجاملة بل كانت موجة الحزن تجتاح البلاد قوية ثائرة . قال أحد كبار رجاله وهو القاضي بهاء الدين بن شداد «وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم فظننت هذا على ضرب من التجوز والترخص إلا فى ذلك اليوم فانى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس» وقد مات صلاح الدين عن نحو سبع وخمسين سنة بعد أن ملك مصر نحو أربع وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحده تزوجت فيما بعد بابن عمها الملك الكامل صاحب مصر وكان أكبر أولاده الذكور الملك الأفضل نور الدين على والذى يليه العزيز عثمان والثالث الظاهر .

٣٠ — كلمة عن الرجل

ما هى العظمة ؟ وما هو الرجل العظيم ؟ هذان سؤالان يصعب أن يجيب الانسان عليهما ولكن لا بد من أن يتلمس الانسان ذلك السر اذا أراد أن يدرك شيئا عن حقيقة صلاح الدين .

لقد كان فى العالم عظماء كثيرون من رجال السيف ومن رجال الفكر وقد ترك هؤلاء آثارا فى وقتهم وظلت أثارهم الى مابعد موتهم .

ولكن المرء يدرك أنهم كانوا كبارا فى الرجال فاذا ما حاول أن يعرف سر عظمتهم خانه البحث أو ضالله المنطق . حتى لقد قال الكثيرون أن العظمة سر خفى فى المرء يرى أثره ولا يعرف كنهه .

ويكتفى هؤلاء بأن يفسروها بألفاظ غامضة اذ لا يقدرون على تبسيطها . ولكنا نخاطر ونحاول بالاستقراء أن نقول فى هذا الشأن كلمة نصوغها بأبسط لغة عالمين بوعورة ما نتجشم .

الجسم فى نفسه وهو تلك المجموعة من اللحم والعظم وسائر المكونات ليس إلا آلة تطيع وأداة تنفذ ما يريده نظام أعلى وهو الروح وما يلحق به من مجموعة عصبية ولعلنا اذا أردنا معرفة سر عظمة الفرد لانقدر أن نجده فى الغلاف الخارجى بل لابد أن يكون فى تلك المجموعة العصبية المسيطرة .

(ا) كان كل عظماء الرجال ذوى أعصاب متينة — تحس فتؤدى إحساسها على أتم وجه وأدقه — ثم تحرك الجسم ما شاءت من حركات لا يتطرق اليها الخلل ولا يخرج عن سلطانها عضو من الأعضاء .

يتلقى العظماء من الصدمات أعظمها ويحسون بعظم الصدمة بل أن إحساسهم بهـا يكون فى الغالب أكثر من احساس عامة النـاس ولكنهم لا يذهلون للصدمة ولو اشتدت — ومثل هـذا ما نسمعه من نابليون اذ قال عن نفسه «كأن الاقدار كانت عالمة بما خبأته لى من صدمات فجعلت لى أعصابا من حديد» .

وقد كان لصلاح الدين قسط كبير من هذه الصفة فكان لا يذهل عند صـدمة بل يحس بهـا ويقف ويحكم ويريد وينفذ فى ثبات ودقة . ففى حصار عكا كان يرى العدو يزيد عدده يوما بعـد يوم وهو يتخذ لكل طارئ عدّته أو يحاول ذلك ولم يجزع ولم تخر عزيمته . وفى موقعة أرسوف وقف وحده فى وسط جمع قليل وقد انهزم جيشه وبقى على ثبـاته حتى بعث شيئا ممـا فى نفسه من قوّة الجنان الى رجاله فثبتوا ومنع بذلك كارثة كادت تكون قاضية . وكم حدث أن بلغه نعى أبنائه أو أهله من أعز الناس عليه فيملك نفسه والحزن يحرق قلبـه فاذا كان فى وليمة لا يفسدها بل يستمر على إحيائهـا الى أن تنتهى ثم يترك بعـد ذلك العنان لنفسه الحساسـة فيفيض جواها وحزنها بعد أن كبحها ماشاء . ولو شئنا أن نضاعف الأمثلة الدالة على ذلك لوجدنا فى كل يوم من حياته المليئة مثـلا بل أمثـالا .

(ب) هذا وقد نبيح لأنفسنا أن نستعير لغة ما وراء الطبيعة فنقول أن القوّة العصبية نوع من القوّة ولها كما يقولون أشعة ولعل تلك الأشعة تحدث فى الخارج أثرا ، ولعل هذا هو سر ما يشعر به الناس من هيبة ممزوجة باحترام وحب اذا هم اقتربوا من العظيم وما ذلك الشعور كما يقول أصحاب ما وراء الطبيعة إلا نتيجة تأثير نفس العظيم فى نفوس من حوله وذلك شبيه بأثر المنوّم فى التنويم المغناطيسى . وقد كان عظماء الرجال جميعا متصفين بتلك الصفة فلا نسمع عن عظيم إلا ونعرف أن المتقرب اليه كان يشعر بشىء من الشعور القوى نحوه .

وقد قال من اقترب من صلاح الدين مثل هذا ومن ذلك ما حكاه عبد اللطيف البغدادى عنه إذ قال « ان المتقرّب منه لا يستطيع إلا أن يحس بحب له ممزوج بهيبة [1] » .

(١) كان أمراؤه الكبار ومماليكه الصغار اذا رأوا عينه واقعة عليهم وعرفوا أنه ينظر الى أعمالهم استماتوا فى القيام بالواجب وبالغوا فى إظهار ما فى نفوسهم من شجاعة أو كرم . وما كان جزاؤهم الذى يتوقعونه من وراء كل ذلك إلا أن ينالوا من صلاح الدين ابتسامة الرضا أوّلا وأن تلحقهم هذه الأعمال بمرتبته فى البطولة — وليس من المبالغة أن نقول أن لصلاح الدين فضلا كبيرا فى تلك الشهامة التى ظهرت فى المسلمين فى ذلك العصر فان للقائد أثرا عظيما فى نفوس رجاله فالناس هم الناس على وجه التقريب فى كل وقت فاذا تولى أمرهم عظيم تساموا جميعا الى مستوى عظمته =

(ج) هذا عن تلك القوة المبهمة التى يمتـاز بها الرجل العظيم ولكنا نقدر بعد ذلك أن نتكلم كلاما أقل إبهاما — فان من أكبر مميزات العظيم نظرته فى الحياة الى نفسه والى الناس .

إن الطفل ينظر الى العالم نظرة سطحية فيرى كل ما فيها معقدا منفصلا عن غيره غير مفهوم فاذا ما كبر أخذ يخترق السطح فيعرف طبائع الأشياء فيقل تعقدها فى نظره حتى اذا ما عرف العالم وخبره

═ فأتوا بالعجيب واذا تولى أمرهم حقير النفس ضاع أمرهم وفشلوا و برزت الى الأمام أدنى صفات الانسان وأحقرها .

فلنذكر ذلك الشاب الصانع الدمشقى الذى توصل الى اختراع وسـيلة لاحراق آلات العدو بعد أن أعيت المسلمين الحيل فى الدفاع عن أنفسهم أمامها — حتى اذا ما حضر الى صلاح الدين وأظهر له هذا رضاه وعرض عليه الجزاء أبى الشاب إباء صادقا وقال أنه ما فعل ذلك الا اداء لواجبه وتقربا الى الله تعالى ... ولنذكر مملوكه الذى رآه ناظرا اليه والجموع المسيحية الحائلة دونه فاندفع الى الموت وصدع صفوف الأعداء صدعا كبيرا بنفسه وحده — وعلت بذلك المثل الصالح نفوس المحاربين فاندفعوا الى تقليده والانتقام له .

ولنذكر أمراءه الكبار وليس فى الدولة ما يضمن خضوعهم لصـلاح الدين من قوة إذ كانوا جميعا شبه مستقلين وكان صلاح الدين فى شغل من حروبه فلم نسمع بعد سـنة ١١٧٦ أن واحدا منهم خرج عليه لا بل لم نسمع أن واحدا منهم قصر عن أن يكون مثالا عاليا فى التضحية والايثار والاقدام بنفسه فى مقدمة جنوده . لنذكر كل ذلك ثم لنحكم على عظمة الرجل الذى كان قطب تلك الحوادث وجماع أمرها .

....

أمكنه أن يسند كل شيء الى أصوله وأن يرى الأمور بسيطة الى حدّ أكبر مما كان يراه من قبل . وهكذا الناس فمنهم الأبله الذى يأخذ العالم كما هو ويظن كل شيء وحدة قائمة بذاتها فيخيل اليه أن العالم مركب معقد على غير نظام ويليه من هو أكثر منه نباهة حتى الذكى الفهم فانه يرى العالم أبسط بكثير مما يراه الأقل فهما . فاذا ما بلغ الرجل الى مستوى العظمة أمكنه أن يخترق الحجب السطحية وأن يتغلغل الى الحقائق المجرّدة من التمويه والأعراض . ولهذا كان عظماء الرجال دائما ممتازين ببساطة التفكير وبساطة الخطط وبساطة النظرة الى الحيـاة . فينظرون الى أنفسهم والى الناس أنهم جميعا خلق متشابهون فى كثير ويختلف بعضهم عن بعض بحسب طباعهم لا بحسب الاصطلاح والوضع . وهكذا كان صلاح الدين بسيطا فى كل شيء فى نظرته الى الحيـاة ، فى تفكيره ، فى سـلوكه ، فى معاملاته ، فى حياته ، فى نظرته الى نفسه والى الناس .

كان لا يظهر بأنه سيد الدولة الاسلامية بل يقف أمام أمرائه الكبار وأحقر خدمه على السواء بصفته رجلا أمام رجال لا يفرق بين أحد والآخر إلا بمقدار حظه من الرجـولة ولعله كان واثقـا أو كان واثقا بطبعه بغير تفكير، من أنه أقوى من كل من دونه من الرجال بغير حاجة الى أن يرتكز على مساعدة أبهـة الملك وهيبة

السلطان . وكان أمراؤه مع ما يعطيهم من الحرية وما كان لهم في عصرهم ذاك من القوة والنفوذ، كانوا يتضاءلون أمامه ولا يجسر أحد أن يعصى اذا أمره، لا خوفا من قوته المادية ولكن طاعة لا بد منها لشخصه القوى .

فلم يكن يحترك على أمير جنودا بل يكلمه الكلمة الوديعة ثم يتركه فاذا هو خاضع ولو كان ممن لا يأسرهم الاحسان .

والى جانب هذا كان لا يرى فرقا كبيرا بينه وبين أقل خدمه بل يتجاوز ويحكم بطبعه بغير تكلف — فقد رمى أحد الخدم آخر بحذاء فتجاوز حتى وصل اليه هو فأدار وجهه للناحية الأخرى حتى لا يحرج ذلك الخادم . وكان اذا عرضت عليه القصص يزدحم الناس عليه حتى لقد يطأون طراحته وهو لا يتأثر[1] .

وطلب في قضية خصما فجلس في مجلس القضاء ولم يتكبر مع أن الحق كان معه . وأراد مملوك مرة أن يوقع منه على ورقة

(١) ولقد ذكر أنه بعد انصرافه عن عكا وأخذ الفرنج لها ذهب الى الساحل لكي يدمر حصونه، وكان هو فيمن يدمر تلك الحصون بنفسه يعمل كواحد من العمال فيحمل الأخشاب فوق كتفه وكذلك كان عند بناء حصون القدس يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة «فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام» .

فاعتذر له بالضجر وطلب اليه أن يؤجل ذلك فألح فقال له إن الدواة غير حاضرة فأشار المملوك الى دواة كانت على مسافة منه فنظر صلاح الدين فوجدها فمال ببساطة نحوها مرتكزا على يده حتى بلغها بمشقة ثم وقع له بما شاء ولم ير فى ذلك شيئا .

وكان اذا مرض أحد أتباعه أرسل يسأل عنه مرارا ولو كان هو نفسه مريضا . وكان كثير الوداعة فى دائرة أسرته يجالس أولاده ويباسطهم ويضاحكهم لا سيما الصغار منهم وكان معروفا دائما بالعطف على كل ضعيف لا سيما الشيوخ والنساء والأطفال (١) فلا غرابة لمن كان مثل ذلك اذا كانت طاعة الناس له طاعة طبيعية يغتصبها بشخصه القوى ، وتبذل له حبا بالطبع بغير تكلف .

(د) والرجل العظيم شديد الاحساس دائما ولو أن إحساسه لا يخرج أعماله عن إرادته وسيطرته — وكل ما يرد فى سير العظماء يدل على أنهم كانوا من أشدّ الناس عاطفة . ولو أنهم كانوا يملكون ناصية تلك العواطف . وقد كان صلاح الدين شديد العاطفة يزيد

(١) ولم يكن هناك فرق فى رحمته بين المسلم وغيره ومن الأمثلة الكثيرة على هذا قصة الرضيع التى وقعت فى أثناء حصار عكا فى الأيام الأخيرة التى ضاق فيها الحصار على المدينة وضاق صدر صلاح الدين فيها مما يجده المحصورون من البلاء ولكن نفسه لم تكن لتقسو ولو اشتدّ كربها .

به الفرح اذا لقى صديقا حتى يبكى، ويزيد به الوجد اذا اهتم لأمر حتى لا يأكل ولا ينام بل يقضى كل وقته فى عمل مستمر، ويملكه السرور أحيانا فتهون عنده الدنيا وما بها وتهزه الأريحية فيهب كل ماله، وتستهويه ملاهى الرجولة فيقضى فى الصيد أياما يشعر بلذة أى لذة فى أن يسرح بين المروج ويتردّد فى وديان الفلاة الفسيحة، ثم يستثيره الطرب الحلال الى الجمال فيهتز لقول الشاعر إذ يقول أمثال :

وزارنى طيف من أهوى على حذر من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحا وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

فالحق أن الذى لا تهزه العواطف الوثابة يكون أثقل مادة من أن ينهض الى الآفاق العالية .

(ه) هذا من جهة الشخصية ولكن الى جانب هذا يمتاز العظيم دائما بقوّة العقل والذكاء والواقع أن قوّة العقل والذكاء ماهى إلا نتيجة لازمة للقوّة العصبية وقد كان صلاح الدين على أكبر ما بلغه الانسان من قوّة العقل . انه لم يكن عالما بالمعنى الأكبر ولو أنه كان على شىء كثير من الاطلاع فى الحديث وشىء من الفقه والأدب ولا سيما أنساب العرب ووقائعهم وسيرهم فنعرف مثلا أنه

قرأ فيما قرأ كتابا فى الفقه من تصنيف الرازى، وكان فى الصباح يقرأ بعد الصلاة شيئا من الحديث أو الفقه مع بعض الأشياخ مثل القاضى بهاء الدين بن شدّاد. ولكن ذكاءه القوى كان يسدّ ما فى علمه من نقص ولهذا كان أكبر مدرّسى عصره يحسبون لعلمه حسابا اذا ما أحاطوا به فى مجلسه الحافل بكبار أهل العلم فى عصره . وكانت وجوه مناقشته ونقده تدل على مقدار فهمه واذا وصفناه بالفهم فانا نقصد بالطبع أنه كان من أهل السنة المتشدّدين فى مسألة العقيدة واذا كانت المغالاة فى ذلك عيبا فقد كان مغاليا فى التشدّد و يعرف عنه أنه قتل جماعة ممن كان يشك فى صدق إيمانهم . ولعل روح العصر تشفع له اذا كان هناك من يميل الى مؤاخذته فى ذلك .

ولكن صلاح الدين كان رجل سياسة وحرب ولم يكن برجل العلم ولهذا كان ذكاؤه أظهر ما يكون فى أمور الدولة والحروب — فقد كان بعيد النظر يتوقع الأمر قبل حدوثه من أوّل بوادره وكثيرا ما كان رأيه فى أمور الدولة خيرا من رأى أجمع عليه أمراؤه كلهم . وكان فى إصلاح أمور بلاده يضع يده دائما على مواضع الخلل والضعف وكانت له قدرة عظيمة على القيام بتفاصيل الأمور فكان فى وقت واحد يدبر الحرب و يرسم الخطط و يرسل الى الأقاليم المختلفة التى فى دولته يرسم خطط الاصلاح الداخلى و يملى إرادته

فى الادارة المحلية . ويقوم فى أثناء هذا وذاك على مراقبة كل مايجرى فى القضاء فى بلاده على يد القضاة ، وما يجرى من الأمور فى جيشه الكبير حتى لقد كان كل جندى يظن أن عين صلاح الدين واقعة عليه وكانت حماسة جنوده ناشئة من اعتقادهم أنه يعرف ما يعملون ويجازى الاحسان ويعاقب الاساءة على طريقته فى الجزاء والعقاب .

(و) على أن صلاح الدين يمتاز فوق كل هذا بميزة قل أن توجد فى غيره من العظماء فقد ذكر التاريخ كثيرين ممن جمعوا قوة الشخصية وقوة العقل وأحدثوا فى العالم بهذه الميزات آثارا كبرى ولكن قل أن نجد من هؤلاء العظماء من كان فى نفس الوقت عظيما وقديسا . بل ان كثيرا منهم كانت له سقطات فى خلقه — إما من قسوة وإما من عدم تردد أمام الوسائل لبلوغ غاياتهم وإما من تجاوز لحدود الأخلاق الفاضلة — بل ان كثيرين من العظماء يرون الفضائل دون قدرهم ويظنون أنها قيود وضعت للدهماء الذين هم فى مستوى دون مستواهم . ولكن صلاح الدين كان من القلائل الذين جمعوا الخلق الكريم والعقل القوى والشخصية المسيطرة .

فكان متدينا منذ أول حياته ولكنه كان مخطئا بعض الخطأ فى صباه حتى اذا ما دخل ميدان العمل فى أول رجولته ترك اللهو

وتاب عما حرمه الله . ولكن عقيدته لم يتدخل اليها خلل فى وقت من أوقات حياته وكان حريصا على أن تكون عقيدة أبنائه قائمة على صخرة فكان يعلمهم بنفسه أوّل قواعد الدين .

وأما فروض الدين من الصلاة فكان مواظبا عليها ويصلى نوافل فوقها كثيرة ولم يترك الصلاة إلا عند ما اشتدّ عليه مرض الموت وتغيب ذهنه فى الأيام الثلاثة الأخيرة . وكان يؤدّى الزكاة عن ماله القليل ولو أنه لم يكن فى وقت من حياته كثير المال لكرمه وكثرة نفقته فى وجوه الخير . وليس أدل على ذلك من أنه لم يترك عند وفاته فى خزائنه أكثر من سبعة وأربعين درهما وجرما واحدا ذهبا ولم يخلف ملكا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة .

وأما الصوم فقد كان يشتدّ عليه ولا سيما فى ميدان الحروب وأيام المرض وكان ضعيف الجسم فلهذا كان يتأخر عليه فوائت وحاول أن يقضيها بعد أن انتهى من حروبه ولكنه مات وعليه بعضها .

ولم يستطع الحج مع عزمه عليه وشدّة شوقه اليه اذ لم يمهله الأجل بعد أن فرغ من الجهاد ليتم تلك الفريضة . ومن العجيب أن نعرف أنه فى العام الوحيد الذى خلا من الجهاد فى آخر حياته لم يستطع الحج «لخلو اليد عما يليق بأمثاله» .

وكان رقيق النفس يهتز اهتزازا شديدا لسماع القرآن والحديث وكان كثير الثقة بالله الى درجة قد يعدها البعض خرافة ولكن الحقيقة أن ثبات نفسه كان يدفعه الى الاطمئنان الى ما يجرى به القضاء واثقا بأنه قد بذل مافى وسعه وأن الحيلة بعد ذلك فى تصريف القضاء ليست فى يده .

ولكن التدين وحده ليس كل ما اتصف به ذلك الرجل الفذ فقد كان خلقه مما يزين أبعد الناس عن الدين فيقربه الى نفوس المتدينين . فكان لايرى الغاية تبرر الوسيلة ولهذا لم ينزل فى جهاده مع حماسته وشدة إيمانه لقصده الى سلوك سبيل تأباها المكارم — فلم يغدر مرة ولم يقل كلمة إلا وفى بها ولم يعد حتى يكون قصده الوفاء وكان فى هذا يسوى بين صديقه وعدوه فكان يأبى مع أعدائه إلا أن يكون منازلا شريفا — فلم تحفظ عليه هنة ولم يعرف عنه نقض لعهد ولا سعى دنىء فى الخفاء وقد انتصر فى حطين وفتح القدس نصرا عظيما فلم يبطره ذلك ولم يدر رأسه فيدفع به الى انتقام أو قسوة بل تجلت شفقته على الضعيف وبره بالوعد ورحمته بالانسان ولوكان من غير جنسه ودينه بل لوكان من أشد أعدائه . ولم يكن فى نفسه حقد ولا حب انتقام . ويتجلى ذلك من وصيته لابنه إذ قال « وأحذرك من الدماء والدخول فيها فان الدم

لا ينام — وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ... ولا تحقد على أحد فان الموت لايبقى على أحد واحذر ما بينك و بين الناس فانه لا يغفر إلا برضاهم وأما ما بينك و بين الله فانه يغفره بالتو بة اليه فانه كريم » وكان غضبه اذا غضب للمكارم والشرف فقتله لارناط الغادر صاحب الكرك لا يذمه أحد وايقاعه بشاور الوزير المصرى لا يجد مؤرخ غبارا عليه إذ كان فى كل ذلك غاضبا للشرف والرجولة والعهود . وكان عادلا عدالة لا قيد عليها ولو كان على أهله ونفسه فكان يأخذ من أبناء إخوته وأبنائه ومن نفسه اذا قام دليل على أن القانون يحكم عليهم أو عليه . على أن كل ما يذكر عن مواقفه أمام القضاء يدل على أنه كان على الحق . فكان اذا تبرأ أمام القانون مما طلبه خصمه تكرم على ذلك الخصم فوهبه ما يسمح به كرمه علما منه أن ذلك الخصم ما اندفع الى ما اندفع اليه من الخصومة الا لحاجة قامت به .

وكان كريما ينفق ما فى يده وأكثر مما فى يده فى سبيل الخير والاحسان ولم يترك ميراثا من ذهب أو فضة أو ملك لهذا السبب . ذلك وهو صاحب الدولة العظيمة التى ألبست فرعون وكسرى ذهبا ، وجعلت لها أهراما وإيوانا . فكان أحيانا يذكر المال قائلا "يمكن أن يكون فى الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب» ولعله كان يريد بذلك نفسه .

وكان بعد كل ذلك حسن العشرة لطيف المعاملة طيب الفكاهة . وكان مجلسه طاهرا من الرجس لا يذكر بين يديه الا خيرا اذ كان لا يحب أن يسمع الاخيرا . ولم يشتم أحدا ولم يعل صوته فى تأنيب أحد من خدمة إلا مراجعة لطيفة ولو اشتد موجب التأنيب ومثل من ذلك ما حدث أيام مرضه وذلك أنه أدخل الحمام فوجد الماء حارا فطلب ماء باردا فأحضره الذى يخدمه فسقط من الماء شىء على الأرض فناله منه شئ فتألم له لضعفه ثم طلب الماء البارد أيضا فأحضر فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض فوقع الماء بجميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على أن قال للغلام « ان كنت تريد قتلى فعرفنى » ثم سكت عنه .

وكان فى حياته الداخلية هادئا محبا محبوبا — يودع أبناءه بأن يقبلهم ويمسح على رؤوسهم . وكان يصحب أولاده واخوته فى الصيد، وكان يداعب أبناءه الصغار ويعيش فى داخل بيته غير متكلف، وكان يطلب أحيانا أكلا بسيطا كارز بلبن وأمثاله فيأكل مع من حضر من رجاله الأخصاء وأولاده كما يفعل أى عامل من أوساط الناس .

على مثل هذا كان صلاح الدين فى حياته وقد خلا العالم بوفاته من نور أشرق عليه حينا إلا ذكرا نردده عنه لعل فيه أسوة ومنار هدى .

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٠٨/١٩٢٧/٢٢٠٠)